النظرية الأخلاقية في فلسفة القديس توما الاكويني

م . د . حامد عبد الحمزة محمد علي
جامعة بابل / كلية التربية للعلوم الانسانية
hamham_71@yahoo.com

المستخلص

من الضروري ان نقرأ القديس توما حتى نعرف انه يتحدث عن رؤية الماهية الالهية، ومن ناحية اخرى، نقرأ القديس توما حتى نعرف انه كان على وعي تام بانه ليس ثمة جوهر مخلوق يستطيع بقواه الطبيعية ان يصل الى رؤية الله من ماهيته، وانه لبلوغ هذه الرؤية مطلوب ان يكون هناك ارتفاع أعلى من مستوى الطبيعة، ماذا اذن عن الرغبة الطبيعية، الم يقل القديس توما صراحة انه طالما ان من المستحيل على الرغبة الطبيعية ان تكون عبثا inane وطالما ان الأمر سيكون كذلك ما لم يكن من الممكن الوصول الى معرفة الجوهر الإلهي، التي ترغب في جميع العقول على نحو طبيعي فمن الضروري القول بأنه من الممكن للعقل أن يرى الجوهر الإلهي، على الرغم من ان هذه الرؤية لا يمكن بلوغها بهذه الحياة الدنيا ؟ وإذا كان هناك حقا رغبة طبيعية في رؤية الله، الا يتعرض الطابع العفوي للغبطة التي تعلو على الطبيعي للخطر، ويمكن أولا وقبل كل شيء الإشارة مرة اخرى الى القديس توما بأنه يقرر صراحة ان الانسان لا يستطيع ان يصل الى رؤية الله

الكلمات المفتاحية : الأخلاق، السعادة، الفلسفة المسيحية.

Abstract:

It is only necessary to read Saint Thomas, so we know that he is talking about the vision of the essence of divine if we like precision in expression, on the other hand, it is only necessary, to read St. Thomas even know that he was fully aware that there is no essence of the creature can natural faculties to reach God's vision of what it is. And that to achieve this vision is required to have a higher level of nature hike. So why all the natural desire, Did not St. Thomas explicitly that as long as it is impossible for the natural desire to be in vain inane and as long as it will be as well as what was not possible to get to know the divine essence, which you want in all minds naturally it necessary tossed that it is possible for the mind to see the divine essence, even though that this vision cannot be attained in this life? If there was really a natural desire to see God, not to be subjected to character spontaneous euphoria which are superior to the normal risk, and can be first and foremost the signal back to Saint Thomas decide explicitly that man cannot be up to the vision of God.

key words: Morality. the happiness. Christian philosophy.

المقدمة

تذهب هذه الدراسة إلى إيجاد العلاقة الترابطية بين الفلسفة في مفهومها الأخلاقي والديانة المسيحية متمثلة بفلسفة القديس توما الاكويني، فالعلاقة بينهما ليست بالعلاقة الجديدة ، ولعل أحد أبرز السمات المشتركة بينهما هو حبهما للحكمة، وبالرغم من ان بعض الفلاسفة ذهبوا الى تغايرهما في المبادئ والأفكار، مثل عبد الرحمن بدوي، إلا إننا حاولنا إيجاد الوشائج فيما بينهما، وفي دراستنا هذه كان القديس توما الاكويني هو إنموذج البحث، لانه مثل مدى التلاقح بين الديانة المسيحية بوجهها الفلسفي، والفلسفة بوصفها علما مستقلا من العلوم الإنسانية، والذي يعنينا كيف تمظهر الموقف الأخلاقي عنده في الفلسفة المسيحية، وهذا الموقف قد انفرد به من بين الفلاسفة المسيحيين، والعلاقة بين الله والإنسان قد مثلت المحور الرئيس في دراسة الاكويني للمفهوم الاخلاقي، وتجدر الإشارة إلى أن المهوم الأخلاقي عنده هي مزيج من

الأخلاق عند فلاسفة العهد القديم والمسيحية وعلم ما وراء الطبيعة عند اليونان، فلم يستغن عن نظرية الصور عند أرسطو في بناء نظريته الأخلاقية، وبهذا جاءت محاولته للتوفيق بين فلسفة أرسطو والإيمان المسيحي، فقد أوجد الصلة بين المعرفة والإيمان، فجل ما توصل إليه هو أن غاية الإنسان الحقة هي أن يصل إلى الحقيقة في الحياة الدنيا، وهذا هو مفهوم الأخلاق عنده وتضمن بحثنا محورين أساسيين: جاء الأول بعنوان ترابطية الدين والفلسفة، لمحة تاريخية. وحاولنا فيه إيجاد المنطلق التاريخي الذي مثل التوافق في تفسيراتهما التي تصب في معنى الحكمة، وعلى وفق المفهوم الأخلاقي، وسلطنا الأضواء على آراء الفلاسفة المسيحيين السابقة في ذات الموضوع أمثال (بولس الرسول) والأهم ما حملته المسيحية وما سعت لإدخاله في الأخلاق مثل مشكلة الجبر والإختيار ، يقابل هذا الرؤية الفلسفية في الأخلاق التي ميزت بين الأخلاق كعلما والأخلاق كسلوكا معياريا، أما في المبحث الثاني والذي جاء بعنوان : النظرية الأخلاقية عند توما الأكويني، وفيه كيفية تبلور موقفه الأخلاقي عبر نظريته الأخلاقية، آخذين بنظر الإعتبار مدى التأثير الكبير الذي تركه أرسطو في فلسفته الأخلاقية، ولا سيما فكرة الله وحضورها في فلسفة أرسطو المتمظهرة في فلسفة الأكويني، ولعل الله كان يمثل السعادة القصوى عند الاكويني وهو السعادة الكاملة المطلقة، يقابلها ان الفضائل في اطار المفهوم الأخلاقي إن إنقطعت عن الله تتحول الى رذائل، وفي هذا المحور قدمنا لسبع نقاط أساسية مثلت الفلسفة الأخلاقية عند القديس توما الأكويني .

المحور الأول : ترابطية الدين والفلسفة في الفلسفة المسيحية.

هناك ترابط قديم ووثيق جدا بين الدين والفلسفة ، إلى درجة يمكن معه القول بأنه لا دين بلا فلسفة ولا فلسفة بلا دين، وإذا كانت الفلسفة في أحد أبرز معانيها، حب الحكمة، فمن العسير تمييزها تمييزا تاما عن الدين، هذا أفسح مجالا لنظريات عدة، يلغي بعضها صفات الفلسفة المميزة ليجعل منها دنيا، ويلغي بعضها صفات الدين المميزة ليجعل منها فلسفة، وينظر بعضها إلى الدين بوصفه مرحلة أولى من مراحل تطور الفكر البشري، فيوحده بالخرافة، ويرى ان الفلسفة أعقبت الدين، ثم أعقب العلم الفلسفة، ليعطيها أجوبة أكثر موضوعية ويقينية من تلك التي أعطاها الدين حول كل المسائل المتعلقة بالكون والإنسان والحياة . [١]

"والمسيحية واحدة من الأديان التي كان لا بد ان تكون لها موقف خاص بها، فيرى عبد الرحمن بدوي في كتابه (فلسفة العصور الوسطى) ان من التناقض في القول أن يقال هناك فلسفة مسيحية [٢] وذلك لأن كل من الفلسفة والدين له

---

١ – ينظر : صعب، أديب، المقدمة في فلسفة الدين . دار النهار للنشر ،ط٢ ، بيروت ، ١٩٩٥ ، ص٤٧ . وللمزيد أنظر : هارالد ، موللر . تعايش الثقافات . ترجمة :ابراهيم ابو هشهش ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، طرابلس ، ٢٠٠٤، ص١٤٢. وانظر أيضا : حرب ، علي ، هكذا أقرأ ما بعد التفكيك . دار الساقية ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠٥ ، ص١٣٩.

٢ – لا تعد فلسفة من الفلسفات مسيحية بمجرد انها تتكلم على المسيحية وتسعى لتبريرها ، بل لانها تفكر انطلاقا من إيمان أساسي بتعاليم المسيح ،راجع كتاب (الفلسفة المسيحية) لا تيان جيلسون . ان ما يمكن ان يميز (فلسفة مسيحية) ، هو لون فلسفي معين ، والشعور الأصلي الذي يلهمها والذي تتطور حوله ، اكثر بكثير من محتوى تاكيداتها التي قد تطابق العقائد المسيحية او على العكس تخالفها . جوليا ، ديديه ، قاموس الفلسفة . نقله الى العربية ، فرانسو ايوب ، وآخرون ، مكتبة أنطوان ،ط١ ، بيروت ، ١٩٩٢، ص٣٨٦.

ميدان خاص، وهذان الميدانان هما، في رأي الأغلبية، متعارضان متناقضان، فالفلسفة تقوم على العقل وحده في حين الدين يقوم على الإيمان، فهو يتنافى تماما مع ما تقضي به الفلسفة، فكان من الطبيعي أن تثار مشكلة إيجاد فلسفة مسيحية سواء في العصور الوسطى، وفي أي عصر كان" . (٣)

وفي حل وسط وجد نفر من المسيحيين اقتنعوا بالتغاير بين الفلسفة والدين، اننا قد نقبل بالعقل قضية ما ونعتنق نقيضها بالإيمان، ويوجد الآن أمثال هؤلاء، وسيوجد لهم أمثال بلا ريب، ولكن التاريخ يعرض علينا مسيحيين آخرين، كانت الفلسفة والمسيحية عندهم متصلتين متفاعلتين، فأضافوا وجهة جديدة في تاريخ الفكر، وهم يألفون الغالبية العظمى في العصر الوسيط، هؤلاء يتفقون على ان الوحي والعقل من عند الله فمحال أن يتعارضا، وان العقل يجد في الوحي هاديا ومعينا، ولكنهم يفتقرون إلى طائفتين في تصور الصلة بين الطرفين، فهي عند طائفة أوثق منه عند طائفة أخرى .(٤)

وإذ نرفض التفسير المرحلي للنشاطات البشرية المختلفة ونذهب إلى ان مسائل الدين غير مسائل الفلسفة ووظيفة الدين مختلفة عن وظيفة الفلسفة مهما قويت العلاقة بين الإثنين، فاننا نحتاج إلى المزيد من القول حول الدين والفلسفة لنبين معنى قولنا بأنه لا دين بلا فلسفة ولا فلسفة بلا دين، ولا بد من أن يكون بعض ما سنقوله ردا على المحاولات التعسفية لطمس الصفة المميزة للفلسفة أو الدين، ومن ثم رفضا للفكرة التي ترتكز إليها النظرات المرحلية، والقول إن لا دين بلا فلسفة ينطبق على كل الأديان، فالفلسفة، بمعنى الحكمة والترابط المنطقي، ترافق الدين بدءا من مصادره الأولى، أي النصوص المقدسة عينها، فالله الذي أوحى هذه النصوص بوضع ألفاظها أو معانيها على ألسنة الأنبياء، هو (الحكيم) كما في التعبير الإسلامي، وقبله في المفهومين المسيحي واليهودي وسواهما، ويشتد حضور الفلسفة كثيرا في الشروح الموضوعة على هذه النصوص، وهي شروح متباينة أحيانا إلى حد انقسام الدين الواحد مذاهب متعددة على أساسها وتحوي هذه الشروح، أحيانا كثيرة، ردودا صريحة أو ضمنية على مواقف الأديان الأخرى من المسألة التي يتناولها الشرح ولأن ظهور الفلسفة والمنطق، على وجه الخصوص، في الصياغات العقائدية وفي ملخصاتها التي تسمى دساتير الإيمان، فهذه الإعترافات العقائدية نفسها لا تخلو من ردود ضمنية على الأديان أو المذاهب الأخرى التي لا تقف موقفها، أو على صياغات أولى للعقيدة نفسها بعد حاجة إلى شيء من التعديل الفكري أو اللفظي فيها . (٥)

وظهرت طائفة عرفت كتب أرسطو في القرن الثالث عشر، إذ وقفوا من كتاب (التحليلات الثانية) أو البرهان على تعريف العلم وتعيين شروطه، فتبينوا الحد الفاصل بينه وبين الإيمان، ووقفوا من سائر الكتب على تفسير جامع للطبيعة مكتسب بالعقل الصرف، بما في ذلك وجود الله ووجود النفس وأصول الأخلاق، فرأوا وجوب التمييز بين ما يرجع للطبيعة وما يرجع لما فوق الطبيعة، واعتبروا الفلسفة وحدة قائمة بنفسها، تتألف من المسائل التي عالجها الفلاسفة بالفعل، ومسائل جاء بها الوحي ولم تكن لتعرف لولاه وهي مع ذلك قابلة للبرهنة، كالخلق والبعث والمعاد وبعض الصفات الإلهية، بينما

---

٣ – بدوي، عبد الرحمن ، فلسفة العصور الوسطى . دار القلم ، ط٣ ، بيروت ، ١١٧٩، ص١ . وللمزيد أنظر : بدوي ، عبد الرحمن ، خريف الفكر اليوناني ، مكتبة النهضة المصرية ، ط٣ ، القاهرة ، ١٩٥٩، ص٣.

٤ – ينظر : كرم ، يوسف ، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط .دار الكتاب المصري ، (ب،ط) ، القاهرة ، ١٩٤٦، ٨.

٥ – ينظر : صعب ، أديب ، المقدمة في فلسفة الدين . المصدر السابق ، ص٤٧.

يتناول اللاهوت موضوع الوحي بأكمله، الأسرار والحقائق العقلية ، فيضعها مقدمات مسلمة، ويستخدم العقل لتفهمها قدر المستطاع، واستنباط ما يترتب عليها .[٦]

"وقد نال المعلمون في المسيحية، كما في الأديان الأخرى، الذين أقرت تعاليمهم وكتب لها البقاء قسطا وافرا من الثقافة الفلسفية التي أحدثت أثرا قويا في أفكارهم وكتاباتهم ". [٧]

وفي مناسبة بحثنا وللحديث عن تلاقح المسيحية والفلسفة في موضوع الأخلاق، نلاحظ ان المسيحية أدخلت في الأخلاق مشكلة الجبر والإختيار، لأن فكرة الثواب والعقاب التي بشرت بها تصبح غير ذات موضوع ما لم يكن الإنسان حرا في إختيار ما يأتي أو يتجنب من أفعال. [٨]

ومن هؤلاء (بولس الرسول) الذي يمكن اعتباره أول فيلسوف مسيحي، والذي تشكل كتاباته نحو ثلث العهد الجديد، ويخبرنا سفر أعمال الرسل عن لقاء بولس في أثينا قوما من الفلاسفة الأبيقوريين [٩] والرواقيين [١٠] حواراته معهم حول المسيح، ولئن حذر بولس المقبلين على الدين المسيحي من إغراء الفلسفة، قائلا ان المسيحية تبطل حكمة العالم، ففي هذا تأكيد انه كان يعرف الفلسفات السائدة، التي قد تخدع الناس بكلام ملق، معرفة جيدة، وحين يقول: "انظروا ان لا يكون أحد يسبيكم بالفلسفة وبغرور باطل حسب تقليد الناس، حسب أركان العالم وليس حسب المسيح فان فيه يحل كل ملء اللاهوت جسديا "، فكلامه لا يعني رفضا غير مشروط للفلسفة بمقدار ما يعني الوقوف منها موقف الحذر، ويمكن ان نجمل موقفه في نقطتين : **الأولى** تحذير الناس من الاكتفاء بالفلسفة، وهي شأن نظري، والانصراف عن الدين، وهو شأن عملي ، **والثانية** تحذيرهم من اتباع الفلسفات المنفصلة عن الوحي، وان اعترفت بوجود الله وأمكن تصنيفها في باب (اللاهوت الطبيعي)، ومن إعتبارها دينا، وقد أكد المدافعون عن المسيحية وآباء الكنيسة الأوائل موقف بولس إذ وجدوا في المسيحية الفلسفة أو الحكمة الكاملة ، وظهرت الكتابات الدفاعية عن المسيحية بين العامين ١٤٠ و ١٨٠ ، ووجه معظمها إلى الأحكام ليفهموا حقيقة العقائد المسيحية، ويرفعوا أيديهم عن إتباعها، وكان معظم المدافعين، وأبرزهم إيرستيديس ويوستينوس ووتاتيا آنوس وأثيناغوراس وثيوفيلوش الإنطاكي، مطلعين إطلاعا حسنا على المعارف اليونانية،

---

٦ - ينظر : كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط . المصدر السابق ، ص٩.

٧ - صعب، أديب، المقدمة في فلسفة الدين . المصدر السابق ، ص٤٨.

٨ - الطويل، توفيق، فلسفة الأخلاق، أسسها وتطورها، دار النهضة العربية ، ط٣ ، القاهرة ، ١٩٧٦، ص١٣٢

٩ - نسبة الى ابيقور، (٣٤١-٢٧٠ ق.م) ولد بساموس، وتعلم باثينا، وافتتح مدرسته المشهورة باسم الحديقة او حديقة ابيقور، لانه كان يؤثر ان يجالس مريديه في حديقتها دون حجراتها وصارت حديقته نمطا للمجتمعات الابيقورية اللاحقة التي انتشرت في العالم المتحدث بالاغريقية . انظر : الحفني، عبد المنعم ، الموسوعة الفلسفية ، دار المعارف للطباعة والنشر ، (ب،ط) ، تونس ، ١٩٩٢ ، ص٢٦ .

١٠ - احدى الفلسفات التي شاعت في الفترة الهلينستية – الرومانية، اسسها زينون الكيتوي في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، وتستمد اسمها من الرواق (وهو بهو ذو اعمدة) حيث كان يعلم في اثينا، واليه تعزى جميع النظريات الاساسية . انظر : كامل، فؤاد، واخرون ، الموسوعة الفلسفية المختصرة . دار القلم ،(ب،ط) ، بيروت ، (ب،ت) ، ص٢١٨ .

ومنها الفلسفة، وكان لا بد لهم من اعتماد لغة الفلسفة كي يخاطبوا أناسا غير مسيحيين،هكذا اشتد تفاعل المسيحية مع الفلسفة، وكان أعظم المدافعين، هو يوستينوس الشهيد (١٠٠ – ١٦٤) ، مشبعا بأفضل ثقافة فلسفية آنذاك، فقد تدرب أولا على الفلسفة الرواقية، ومنها انتقل إلى الأرسطية والفيثاغورية والأفلاطونية، قبل أن يقع على معلم مسيحي أظهر له نقص الفلسفة الوثنية، بما فيها فلسفة أفلاطون التي أعجبته إعجابا خاصا ظل معه، حتى بعد اعتناقه المسيحية .[١١]

وهذا القديس توما الاكويني [١٢] يستوقفنا، فقد وضع تفرقة صورية واضحة بين اللاهوت الدجماطيقي والفلسفة، وحاول إقامة فلسفة ميتافيزيقية على أساس تجريبي،[١٣] فتلك واقعة مؤكدة ولا يمكن الشك فيها، وتعتمد الفلسفة والعلوم الإنسانية الأخرى فقط على النمو الطبيعي للعقل: فالفيلسوف يستخدم مبادئ معروفة للعقل البشري، مع التقاء طبيعي بالله بالطبع، لكن دون نور الإيمان الذي يعلو على الطبيعة وهو ينتهي إلى نتائج هي ثمار الاستدلال البشري – ورجل اللاهوت – من ناحية أخرى – رغم انه بالقطع يستخدم العقل ، يقبل مبادئ بناء على سلطة الإيمان، وهو يتلقاها من طريق الوحي، وإدخال الجدل إلى اللاهوت وممارسة الجدل ابتداء من مقدمة موحى بها أو عدة مقدمات من الوحي والوصول عقلا إلى نتيجة تؤدي إلى تطور اللاهوت، لكنها لا تقوم بتحويل اللاهوت إلى فلسفة، ما دامت المبادئ والمعطيات تقبل على أساس أنها من الوحي، وبهذا فان لكل منهما خصوصيته . [١٤]

والواقع ان توما الاكويني، أعلن استقلال الفلسفة، طريقة ومبدأ وهدفا، وبقيت الفلسفة في خدمة اللاهوت، ولكن دون أن تعرض نظامها الخاص للخطر، وقد اختبرت المقالات الأولى التي وردت في كتابه (الملخص اللاهوتي)، التمييز بين الفلسفة والعقيدة المقدسة .[١٥]

---

١١ - ينظر : صعب ، أديب ، المقدمة في فلسفة الدين . المصدر السابق ، ص٤٨. وللمزيد إنظر : حمدي ، عبد العال ، الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والبدين . دار القلم ، ط٣ ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ص٤٤. وإنظر أيضا :التكريتي ، ناجي ، الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام . بيروت ، دار الأندلس ، ط٢ ، ١٩٨٢، ص٢١.

١٢ - فيلسوف ولاهوتي من اصل ايطالي ، كتب باللاتينية . ولد بين نهاية عام ١٢٢٤ وبداية عام ١٢٢٥ في قصر روكازيكا على مقرب من اكوينو (ايطاليا الجنوبية) ، ومات في فوسانوفا ، على مقربة من تراشينا ، في ٧ آذار ١٢٧٤ .لقب بالمعلم الجامع ، للكنيسة ، وكذلك بــ (المعلم الملائكي) . والأحداث التي تتألف منها مسيرة حياته لا تعدو ان تكون بعض تنقلات في مسار حياة دينية دومينياكية شغلها بتمامها التدريس الجامعي للاهوت . انظر : طرابيشي ، جورج ، معجم الفلاسفة . دار الطليعة ، ط٣ ، بيروت ،٢٠٠٦، ص٢٤١.

١٣ - كامل ، فؤاد ، وآخرون ، الموسوعة الفلسفية المختصرة . دار القلم ، (ب،ط) ، بيروت ، (ب،ت) ، ص٣١٩ .

١٤ - ينظر : كوبلستون ، فريدريك ، تاريخ الفلسفة . تر ، حبيب الشاروني ، محمود سيد احمد ، تقديم ، امام عبد الفتاح امام ، المركز القومي للترجمة ، ط١، القاهرة ، ص٣١.

١٥ - ينظر : روبينه ، اندره ، الفلسفة الفرنسية . تر ، جورج يونس ، المنشورات العربية ، (ب،ط) ، باريس ، (ب،ت) ، ص٢٩ .

كذلك فان الاكويني، ألف بين الأرسطية واللاهوت المسيحي، غير ان طريقته المسالمة تخفي أحيانا حقيقة كونه على استعداد لإقتراح التعديلات على كلا الجانبين حيثما اعتقد أنها مطلوبة .(١٦)

وينظر إلى الأفلاطونية كما لو كانت خير إعداد للعالم الوثني (غير اليهودي) لتقبل الدين المسيحي، وعنده ان أفلاطون نطق بقوة الكلمة (المسيح)، وانه كان مسيحيا قبل المسيح ، إذن الأكويني اتخذ يوستيوس موقفا ايجابيا من الفلسفة، لكنه رأى ان الفلسفة الصحيحة هي معرفة الله من طريق المسيح، ويمكن إجمال أفكار المدافعين المسيحيين الفلسفية في النقاط الآتية .

١ – العقل واحد لدى كل الناس .

٢ – العقل البشري يستطيع الاستدلال على وجود الله من المخلوقات .

٣ – كل شيء في العالم يتحرك لا من تلقائه، بل بسواه، حتى نصل إلى المحرك الأول الذي هو الله .

٤ – النظام والجمال في العالم يشيران أيضا الى الله .

٥ – الله، الذي خلق المادة، هو روح تعلو على المادة .

٦ – الفلسفة أعظم عطية من الله للعقل البشري، وهدفها توجيه الإنسان إلى الله .

٧ – أفلاطون هو أعظم الفلاسفة الوثنيين، وقد تكلم بوحي الله كما فعل الانبياء .

٨ – هدف الفلسفة الأفلاطونية الأخيرة تحقيق الرؤية الإلهية .

٩ – الفلسفة للعالم الوثني كالناموس لليهود: اعداد على قبول إعلان الله .

١٠ – المسيحية هي الفلسفة الكاملة .

وترددت هذه الآراء مع آباء الكنيسة واللاهوتيين الأوائل، وفي القرن التالي لظهور المدافعيين، تبعهم المؤرخ الكنسي افسابيوس القيصري (٢٦٥ –٣١٣) ، أسقف قيصرية في فلسطين، في مجمل آرائهم، ورأى ان التدبير الإلهي للخلاص شاء ان يكون أفلاطون بمثابة نبي، لكنه تلقى الوحي فقط ولم يدخل ارض الحق الموعودة، وأضاف أفسيابوس ان فلسفة أفلاطون للخاصة، في حين ان المسيح للجميع، وبواسطتها يصيرون فلاسفة، وكانت الإسكندرية قد شهدت أهم مدرسة في الفكر المسيحي، وحاولت المزاوجة بين الدين والفلسفة في معرض مقاومتها الفكر الغنوصي الذي حاول جماعته إخضاع الدين للعقل والاستعاضة عنه بالفلسفة، ومن ابرز دعاتها اقليمندس الاسكندري (١٥٠ – ٢١٥)، واوريجنس (١٨٥–٢٥٤)، وفي حين نظر احد أوائل اللاهوتيين اللاتين، ترتوليانوس (١٥٥–٢٢٢) نظرة ازدراء الى الفلاسفة واعتبر الفلسفة حماقة في هذا العالم، فقد رأى معاصره اقليمندس، متأثرا بالمدافعيين، ان الدين لا يستغني عن الفلسفة . إلا انه ذهب أبعد منهم إذ لم يقتصر نظره إلى الفلسفة على أنها محض تمهيد للوحي المسيحي، بل رآها أداة مهمة لفهم الدين المسيحي، ودعا إلى إيمان ناضج مقرون بالفهم العقلي ، قائلا : ان الإيمان الأعمى أو التسليم المنفعل ليس المثال، وان الشخص الذي يؤمن من غير أن يبذل جهدا لفهم إيمانه هو كالطفل قياسا إلى البالغ، هكذا كان اقليمندس المثقف المسيحي الأول الذي أحب ان يرى المسيحية في علاقتها مع الفلسفة، وان يستخدم العقل الفلسفي لصياغة العقائد اللاهوتية، وأخيرا انتصر خط اقليمندس وانحسر الخط المناهض للفلسفة في اللاهوت المسيحي .(١٧)

---

١٦ - ينظر: كامل ، فؤاد ، وآخرون ، الموسوعة الفلسفية المختصرة . المصدر السابق ، ص٣١٩

١٧ - ينظر : صعب ، أديب ، المقدمة في فلسفة الدين . المصدر السابق، ص٤٩ . وللمزيد أنظر : بدوي ، محمد ، الأخلاق بين الفلسفة والإجتماع ، دار المعارف ، ط١ ، (ب،م) ، (ب ، ت) ، ص٤٤.

"لكن اللاهوتي قد يحاول بمساعدة مقولات وصور من الاستدلال مستعارة من الفلسفة لتفهم أفضل لسر الثالوث المقدس، لكنه بذلك لا يتوقف عن ان يعمل كاللاهوتي، طالما انه يقبل، طوال الوقت معتقد ثالوث الأقانيم في طبيعة واحدة، بناءً على سلطة الوحي من الله، فهي بالنسبة له معطى او مبدأ، مقدمة من الوحي مقبولة على أساس الإيمان وليست نتيجة لبرهان فلسفي" . (١٨)

أما أوريجنس فكان من أهم مفكري مدرسة الإسكندرية، وقد درس أعمال الفلاسفة اليونانيين ويقال انه استمع إلى محاضرات اومونيوس ساكاس، أستاذ معاصره أفلوطين، وظهر أثر أفلاطون ونظريات الفيض أو الكائنات الوسيطة في كلامه عن الخلق والثالوث، وفي حين اعتقد أن الكلمة (المسيح) نموذج الخليقة ومثال المثل، حيث يجتمع الخير والجمال، فقد جعل الكلمة وروح القدس وسيطين بين الله والمخلوقات، ولكن على درجتين أدنى من الأب، وظهر أثر هر قليطس والرواقيين في كلامه على عودة كل المخلوقات الى المبدأ الأول الذي جاءت منه، وبما ان هذا المبدأ هو الله او الخير، فهذا يعني، في نظر اوريجنس، ان كل النفوس، بما فيها الشياطين والأرواح الشريرة ، سوف تصل ، بعد مراحل من العذاب المطهر، الى الله، وتعرف هذه النظرة بمبدأ خلاص الكل، ويجد بعضهم انه يساوي مبدأ تناسخ الأرواح الأفلاطوني، ويجدون له مصدرا آخر في عقائد دينية هندية ويلمحون إلى تأثر اورجينس بها، لكنه، في هذا كله، لم يتخل عن المعطيات المسيحية التي تتجاوز الفلسفة، وان حضرت الكنيسة بعض تعاليمه لاحقا، واستمر تأثير المسيحية بالفلسفة مع لاهوتي القرن الرابع. (١٩)

وبشكل عام " تعد المرحلة التي جاءت منذ بدء المسيحية حتى القرن التاسع فترة (الآباء)، لان التفكير في هذه الفترة كان مقتصرا على آباء الكنيسة، الذين حاولوا أن يدافعوا عن الدين المسيحي ضد التوجهات العنيفة التي تبناها الفلاسفة اليونانيون المعاصرون، أي الأفلاطونيون المحدثون، وكان بينهم من آمن بالفلسفة اليونانية وبخاصة الأفلاطونية المحدثة، أو على العكس، ومن أشهر هؤلاء بوسنيوس وكليمان الإسكندري وبازليوس واورجيانس وترتليانوس، ومن أبرز شخصيات هذا العصر، والتي كان لها الأثر العظيم في الفلسفة المسيحية، هو القديس أوغسطين، وهنا لا بد من التذكير انه ليس من فلاسفة العصر الوسيط، بل هو من فلاسفة عصر الآباء" . (٢٠)

وفيما يتعلق بموضوع دراستنا (الأخلاق) ، رأينا كيف عنى أوغسطين بمشاكل : الحقيقة، والله، والعالم، والنفس، ورأينا كيف حاول حلها رابطا إياها بالله، وكانت هذه المشاكل هي شغله الشاغل، أما المشكلة الأخلاقية، فقد عنى بها من قبل، لأن هذه المشكلة هي الأولى في المانوية التي آمن بها مدة من الزمان قبل أن يصبح مسيحيا، والمشكلة . الأخلاقية تشابه في حلها تماما المشاكل الأخرى، من حيث اتصالها بالله إتصالا وثيقا، فكما ان الله مصدر الحقيقة ، كذلك هو مصدر الأخلاق، وعلى هذا يقول أوغسطين ان الحياة السعيدة هي النعيم في الله، ومن أجل الله، ولاشيء غير هذه الحياة يمكن ان يسمى سعيدا، فالسعادة والحقيقة شيئان مترادفان ، والذي يطلب الواحد يطلب الآخر، وذلك لأن مصدرهما واحد، هو الله،إذن المعرفة وحب الله هما الغاية الأخلاقية، والآن، ما موضوع هذه المعرفة وذاك الحب ؟ موضوعهما هو

---

١٨ - كوبلستون ، فريدريك ، تاريخ الفلسفة . المصدر السابق ، ص٣٢.

١٩ - ينظر : صعب ، أديب ، المقدمة في فلسفة الدين . دار النهار للنشر ،ط٢ ، بيروت ، ١٩٩٥ ، ص٥١. وللمزيد إنظر : موسى ، محمد يوسف ، تاريخ الأخلاق .القاهرة ، دار الكتاب العربي ، (ب،م) ، ١٩٥٣، ص٧٠.

٢٠ - بدوي ، عبد الرحمن ، فلسفة العصور الوسطى . دار القلم ، ط٣، بيروت ، ١٩٧٩ ،ص١٥ .

القانون الأبدي، والطبيعة عند أوغسطين هي الله، وهذا القانون الأبدي أو قانون الطبيعة ثابت لا يتغير بتغير الزمان أو المكان لأنه مودع في نفوس الأفراد منذ البدء ومصدره الله، وهذا القانون الأخلاقي يمكن أن يسمى القانون الإلهي، ما دام المصدر هو الله، وهنا نلاحظ ان أوغسطين يجعل هذا القانون الأخلاقي من طبيعة القوانين الرياضية، فهي حقيقة أزلية أبدية كالحقائق الرياضية، وهذا القانون، لو نظرنا في تفصيلاته، وجدنا انه الموجود في الكون، أما الأمر فهو الله، ولهذا يظهر هذا القانون باعتباره أمرا ، أو نهيا، أمرا باعتباره يوجب السير تبعا لمقتضيات النظام، ونهيا باعتباره عكس ذلك . ويلاحظ ان فكرة النظام أخذها أوغسطين عن الأفلاطونية، بيد انه لم يقتصر على هذه الفلسفة وحدها، بل مزجها بالفلسفة الرواقية ، وبمذهب "شيشرون" – حين جعل القانون الطبيعي، القانون الإلهي، فلم يفعل غير ما فعله الرواقيون من قبل . إلا إننا لا نستطيع أن نفهم كيف يوحد "أوغسطين" بين الحقيقة وبين الأخلاق – وهذا الأمر أخذ حيزا كبيرا في تفكير أوغسطين . [٢١] والأخلاق عنده تعلم الفيلسوف كيف يتصرف .[٢٢]

إلا إذا نظرنا إلى الأخلاق المسيحية، ونظرة المسيحية في الوجود، وخصوصا لدى القديس بولس، فلدى أوغسطين نجد الأخلاق متصلة بتلك التي لدى بولس خصوصا فيما يتعلق بفكرة المحبة، وهذه المسائل الأخلاقية ترجع كلها في النهاية إلى مشكلة الخير والشر، فالخير هو السير على مقتضى القانون الإلهي أو الطبيعي، أما الشر فهو مخالفة هذا القانون، ومن هنا نستخلص الحقيقة الوجودية للخير والشر، فالخير شيء بالفعل، أما الشر فلا يمكن أن يعد وجودا حقيقيا بل هو سلب محض، أي ان الشر هو سلب للخير، أي سلب للنظام، ولهذا فان علة الخير هي علة فاعلية، بينما علة الشر علة نقص، بمعنى ان الخير شيء إيجابي وجودي، أما الشر فهو نقصان أو عدم، ولهذا يمكن تسمية الخير باسم الفعل Effectie، بينما الشر لا يمكن أن يوصف من ناحية العلية إلا بأنه النقص Defectio ، ومن هنا نرى ان أوغسطين يرجع عن معتقداته الأولى في العصر الذي كان يؤمن فيه بالمانوية، فبينما كان في تلك المدة من حياته يقول بأن الشر مبدأ للوجود، نراه بعد أن عرف المسيحية ، وبعد أن اتصل إتصالا وثيقا بالأفكار الأفلاطونية ، جعل الشر عدما وسلبا للخير فحسب، والفضائل في نظره ترجع كلها إلى فضيلة عليا واحدة، هي فضيلة الحب، أي حب الله ، أما الفضائل الأخرى ولا سيما الفضائل الأربعة الرئيسية فقد قال بها أيضا، ولكنه حاول أن يرجعها جميعا إلى الفضيلة الرئيسية وهي حب الله، وفي الحرية وعلاقتها بالأخلاق، يمكن أن نقول إن أوغسطين هو أول من أعطى الحرية معنى جديدا إذ عرفها بأنها القدرة على قول (لا)، ومعنى هذا ان الحرية شيء مطلق، فيستطيع الإنسان أن يرفض كل شيء . [٢٣]

وما زلنا في سعينا لمحاولة إيجاد العلاقة بين الدين والفلسفة المسيحية وتجلياتها الأخلاقية فنلاحظ القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠ – ٣٧٩) والقديس غريغريوس النازينزي الملقب باللاهوتي (٣٢٩–٣٩٠) ، اللذين درسا في جامعة أثنا والقديس غريغوريوس النصصي (٣٣٥–٣٩٤) شقيق باسيليوس ، والقديس اثناسيوس (٢٩٥–٣٧٣) والقديس يوحنا الذهبي الفم (٣٤٤–٤٠٧) . كلهم لجأوا إلى التعابير الفلسفية في معالجتهم المسائل اللاهوتية ومنها مسألة الثالوث . ومن أهم ما تميز به اللاهوت الشرقي منحاه الصوفي القائم، في أحد جوانبه النظرية، على الطريقة التنزيهية "السلبية" في

---

٢١ - ينظر : بدوي ، عبد الرحمن ، فلسفة العصور الوسطى . المصدر السابق، ص٣٧.

٢٢ - روبينه ، اندره ، الفلسفة الفرنسية . تر ، جورج يونس ، المنشورات العربية ، (ب،ط) ، باريس ، (ب،ت) ، ص١٩ .

٢٣ - ينظر : بدوي ، عبد الرحمن ، فلسفة العصور الوسطى . المصدر السابق، ص٣٧.

كلام عن الله، ومعنى ذلك نفي كل الصفات بما فيها الحكمة والحياة والخير، عن الله لا لأنه يفتقر إليها، بل لأنه مصدرها، لئن إطلاقها عليه من غير بعد النظر قد يوقع مطلقها في خطأ التأنيس ويوهمه بان معرفة طبيعة الله ممكنة. ومتى اعترف الانسان باستحالة هذه المعرفة، دخل نطاق الظلمة التي تميز عدم المعرفة ، وأدرك ان الاقتراب من الله يتم عبر الحياة معه، هذه النظرة ، التي ركز عليها غريغوريوس النصصي، بلغت أفضل تعبير عنها مع كاتب مجهول الهوية، هو ديونيسيوس الملقب بالاريوباغي الذي يظن انه راهب سوري عاش في أواخر القرن الخامس، وقد خلف كتابات له نقلت إلى اللاتينية واعتمدها اللاهوتيون الغربيون، وتحمل هذه الطريقة السلبية اثرا كبيرا من الافلاطونية الجديدة ، وكذلك من افلاطون، والمعروف ان الطريقة السقراطية التي اعتمدها افلاطون في محاوراته تقوم على تحديد المثل، كالتقوى والخير والسعادة والجمال ، بنفي العناصر التي لا تنتمي إليها، حتى إذا حان وصفها بما هي لم يجد طالبها طريقا سوى الصمت حيالها والتأمل فيها والتوحد معها وتجسيدها في حياته، وبلغ لاهوت المسيحية الشرقية أفصح تعبير عنه مع القديس يوحنا الدمشقي (٦٧٥–٧٤٩) الذي اجتمع لديه فكر الآباء السابقين، فتبنى آراءهم في اعتبار الفلسفة والعلوم الدنيوية خادمة اللاهوت ، وفي النظر إلى المسيحية على انها وحدها الحكمة الصحيحة الكاملة وان ما قبلها يؤدي إليها . وقد ولد يوحنا الدمشقي وعاش في عاصمة الأمويين ، وكان له اثر كبير مباشر في الفكر الديني الاسلامي . [٢٤]

ووصولا إلى المكانة المميزة في الفلسفة المسيحية ، نجدها مع راهبان دومينيكيان هما ألبرت الكبير (١٢٠٦–١٢٨٠) وتلميذه توما الاكويني (١٢٢٤– ١٢٧٤). وقد ميز ألبرت بين اللاهوت والفلسفة ، وعد الفلسفة علما قائما بذاته ، ولكن لا غنى عنه كأداة للاهوت، وسمي اللاهوتيين الذين رفضوا استعمال هذه الأداة جهالا، وعزز درس الفلسفة في صفوف رهبنته، حتى غدت أهم شرط للدراسة اللاهوتية، وتابع توما الاكويني، وهو أبرز الفلاسفة المدرسيين، هذا الخط . وبنى نظاما فلسفيا شاملا، عالج فيه مسائل مثل وجود الله وطبيعته وخلق العالم والمعرفة والنفس البشرية والأخلاق والسياسة [٢٥] باستقلال عن معطيات الدين المسيحي ولكن بانسجام معها، ورأى ان اللاهوت الطبيعي، وهو ذلك الفرع من

---

٢٤ - صعب ، أديب ، المقدمة في فلسفة الدين . دار النهار للنشر ،ط٢ ، بيروت ، ١٩٩٥ ، ص٥٢. وللمزيد إنظر : ابو ريان ، محمد علي ، تاريخ الفكر الفلسفي من طاليس الى افلاطون . ج١ ، دار الجامعات المصرية ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٧٢، ص٥٧.

٢٥ - وفي السياسة، نرى ان المسيحية سميت بالجمهورية المسيحية، لما اتصفت به من وحدة ونظام ، مما انتهى شيئا فشيئا الى تكوين (دولة) ، قائمة بذاتها، واخذة في ازدياد قوتها، في قلب الإمبراطورية الرومانية .ويمكننا قبول هذا التحليل بصفة عامة لكن بشيء من التعليق ، أما السبب الأول – وهو الصلابة وعدم التسامح المأخوذان من اليهود – فيمكن قبوله قبولا كاملا ، ولقد رأينا في عصرنا هذا فوائد التعصب في الدعاية ، واما السبب الثاني ، هو فكرة الحياة الأخرى، فقد كان الاورفيون أول من قال بها في الغرب، ثم أخذها عنهم الفلاسفة اليونان ، وفي اللاهوت المسيحي عناصر كثيرة من الديانات التي تتميز بما يكتنفها من اسرار ، سواء في ذلك الديانات الاورفية او الاسيوية ، والأسطورة الأساسية في هذه العناصر التي دخلت المسيحية من تلك الديانات ، هي أسطورة الإله الذي يموت لينشر من جديد . للمزيد ينظر : رسل ، برتراند ، تاريخ الفلسفة الغربية ، الكتاب الثاني ، تر ، زكي نجيب محمود ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (ب،ط) ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ٤٤ .

الميتافيزيقيا الذي يبحث عن وجود الله وطبيعته وعلاقته بالمخلوقات، ويشكل الجزء الأكبر من الفلسفة ، بحيث يمكن القول ان الفلسفة كلها تتجه نحو معرفة الله الذي هو غاية الانسان وسعادته، وفي فلسفته كما في شرحه العقيدة المسيحية، كان توما أرسطيا إلى أقصى حد، وتبنى تحديد أرسطو للميتافيزيقيا على انه دراسة الوجود من حيث هو موجود، فقال ان جوهر الله ليس الحق ولا الخير ولا أي صفة من هذا القبيل، بل هو الوجود ، وفي رأيه ان الفلسفة وبقية العلوم تعتمد اعتمادا تاما على العقل والمنطق ، في حين ينطلق اللاهوتي من معطيات الوحي، وان لجأ إلى الفلسفة والمنطق في بعض مناقشاته . ويعتبر التومائيون المعاصرون ان فلسفة توما، التي تبنتها الكنيسة الكاثوليكية فلسفة رسمية، تبقى قائمة بانفصال عن اللاهوت وحتى عن الروحانية المسيحية . لذلك أدخلوها في عداد المدارس الفلسفية الحية ، واعتمدوها لفتح حوار مع ذوي النظرات الأخرى من وجوديين وماركسيين وسواهم . [٢٦]

المحور الثاني : النظرية الأخلاقية عند توما الاكويني .

هناك مجموعة من المرتكزات الفكرية، من دونها لن يكون بحثنا عن الأخلاق عمليا، لذلك يجب التوقف عندها، سعيا في إظهار موضوع الأخلاق عند توما الاكويني، وتجدر الإشارة إلى ان أرسطو كان بمثابة المرآة التي تنعكس فيها الصورة الأخلاقية عند القديس توما، وذلك لإتفاقه مع بعض أرائه ومعارضته لآراء أخرى، وبين هذا وذاك، تمظهرت النظرية الأخلاقية عنده، مؤدية إلى تبلور موقف أخلاقي انفرد به من بين الفلاسفة المسيحيين في العصر الوسيط، ومن أبرز هذه المرتكزات .

ثنائية العلاقة بين الله والإنسان هي أساس النظرية الأخلاقية .

١ – "يذهب أرسطو في كتابه الاخلاق النيقوماخية [٢٧] إلى ان كل فعل يسلك في سبيل غاية، وان الفعل البشري يعمل من أجل السعادة، فهو يريد أن يحصل على السعادة، وهو يقول ان السعادة لا بد أن تكمن في النشاط ، وأساسا في هذا النشاط الذي يكمل أعلى ملكة في الإنسان، والتي تتجه نحو أعلى الموضوعات وأكثرها نبلا، ومن ثم فهو ينتهي إلى نتيجة تقول ان السعادة البشرية تكمن أساسا في النظر theoria في تأمل أعلى الموضوعات وبصفة خاصة في تأمل المحرك الذي لا يتحرك وهو (الله)، على الرغم من انه يذهب إلى انه منبع الخيرات الأخرى مثل الصداقة، وعدم الإسراف، والخيرات الخارجية، أمر ضروري لتحقيق السعادة الكاملة " .[٢٨]

وهنا يطالعنا موقف أرسطو في الأخلاق مبنيا على التضاد الحاصل، فالاستحقاق لدى أرسطو يرتكز إلى فضائل هي بمثابة مكتسبات إرادية تفيد من المعين الطبيعي المتمثل بالطبع أو الخلق، وتتنامى بفضل جهود الإنسان

٢٦ - ينظر : صعب ، أديب ، المقدمة في فلسفة الدين . المصدر السابق ، ص٦٥.

٢٧ - للمزيد عن الأخلاق عند أرسطو أنظر : أرسطو، الأخلاق ، ترجمة إسحاق بن حنين ، تحقيق عبد الرحمن بدوي ، وكالة المطبوعات ،(ب،ط) ، الكويت ، (ب،ت) ص٦٥.

٢٨ - ينظر : كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة ، المصدر السابق ، ص١٣٧.وللمزيد إنظر : ستيس ، ولتر ، تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة :مجاهد عبد المنعم ، دار الثقافة ، (ب،ط) ، القاهرة ، ١٩٨٤، ص٢٥٩.

المدنية وعلائقه السياسية أو الإجتماعية بأعضاء المدينة، أما المثل الأعلى للروحانية المسيحية فهو على العكس، تجريد الإنسان وعزله ليتسنى للنفس وقد تعرت أن تستقبل شعاع النعمة الإلهية .[٢٩]

ومن هنا كانت الأخلاق الأرسطية في طابعها "هي أخلاق السعادة ، وهي أيضا أخلاق غائية وعقلية، ما دام من الواضح أن التأمل عنده يعني التأمل الفلسفي،فهو لا يشير إلى أية ظاهرة دينية مثل الجذب الصوفي عند أفلوطين، فضلا عن ذلك فان غاية (telos) النشاط الأخلاقي هي غاية مطلوب السعي إليها في هذه الحياة ". [٣٠]

والنشاط الأخلاقي يدخل في المسألة الأخلاقية عند القديس توما، فالشر غير مقصود، وليس هو بالجوهر، وله علة عرضية هي الخير، والأشياء كلها تميل إلى التشبه بالله الذي هو غاية كل شيء، وليست السعادة البشرية متوقفة على لذائذ الجسد والجاه والمجد والثروة والسلطان الدنيوي، او على خيرات البدن ، كلا ولا تكون الحواس مقرا لها، ان السعادة الأخيرة للإنسان لا تتألف من أفعال تتمثل فيها الفضيلة الأخلاقية، لأن هذه الأفعال وسائل، وإنما تتالف تلك السعادة من التأمل في الله، على ان العلم بالله كما هو حاصل للكثرة الغالبة من الناس، لا يكفي، ولا يكفي كذلك ان تعلم به علما قائما على البرهان العقلي، بل لا يكفي ان تعلم به علما صادرا عن الإيمان، فنحن في هذه الحياة لا نستطيع أن نرى الله في جوهره، ولا أن نظفر بالسعادة الأخيرة ، أما في الآخرة فسنراه وجها لوجه .[٣١]

وبمقدار ما يتعلق الأمر بالأخلاق عند أرسطو فليس ثمة إشارة إلى رؤية الله في حياة قادمة، ومن المشكوك فيه في الواقع ما إذا كان قد امن بالخلود الشخصي على الإطلاق، ان الانسان السعيد حقا عند أرسطو هو الفيلسوف وليس القديس، والان : فقد تبنى القديس توما الاكويني نظرة سعادة وموقف غائي مماثل، وهذه النظرية في السلوك البشري عقلانية من بعض الجوانب، لكن سرعان ما يصبح واضحا التغير في التأكيد الذي يميز إختلافا واضحا بين نظريته ونظرية أرسطو، ان الأفعال الوحيدة للإنسان التي تقع حقا في نطاق الأخلاق هي الأفعال الحرة، وهي الأفعال التي تصدر عن الانسان بوصفه إنسانا على وجه الدقة، اي بوصفه موجودا عاقلا وهذه الأفعال، الإنسانية وهي تتميز عن أفعال الرأفة، تصدر عن إرادة الإنسان هي الخير bonum انها لميزة يتميز بها الانسان ان يعمل من أجل غاية معروفة، إلا ان الغاية الجزئية، أو الخير الجزئي، لا يمكن أن تكتمل ولا أن تشبع الإرادة البشرية التي تتجه نحو الخير الكلي، ولا يمكن أن تجد إشباعها إلا عندما تبلغ الخير الكلي، فما هو الخير الكلي عينيا ؟ لا يمكن ان تجد إشباعها إلا عندما تبلغ الخير الكلي ، فما الخير الكلي عينيا، لا يمكن ان يوجد مثلا في الثروة لأن الثروة ليست سوى وسيلة لتحقيق غاية ما .[٣٢]

---

٢٩ - ينظر : بيرهييه ، اميل ، تاريخ الفلسفة . العصر الوسيط والنهضة . تر ، جورج طرابيشي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٣، ص١٨٢.

٣٠ - كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة ، المصدر نفسه ، ص١٣٨، وللمزيد أنظر : الشرقاوي ، محمد عبد الله ، الفكر الأخلاقي ، دار الجيل ، ط١ ، ١٩٩١، ص٩٨.

٣١ - رسل ، برتراند ، تاريخ الفلسفة الغربية . الكتاب الثالث ، المصدر نفسه ، ص٢٣٧.وللمزيد أنظر : أفلاطون ، جورجياس ، ترجمة محسن حسن ، مراجعة علي سامي النشار ، مصر ، ١٩٧٠ ، ص٤٧٤.

٣٢ - كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة . المصدر السابق، ص١٣٨.

وهذه الغاية لا بد ان تكون عقلية ، فالعقل هو الذي يحدد الغاية في حياتنا، وهو الباعث الذي يحفزنا على أفعالنا الإرادية.[٣٣]

في حين ان الخير الكلي هو بالضرورة الغاية النهائية ولا يمكن أن يكون هو نفسه وسيلة لغاية ابعد، ولا يمكن ان يتألف من اللذة الحسية طالما ان ذلك لا يشبع سوى البدن [٣٤] وليس الإنسان كليا ولا يمكن أن يتألف من القوة طالما انها لا تشبع الإنسان كليا أو تشبع الإرادة تماما، والتي يمكن فضلا عن ذلك إساءة استعمالها في حين انه لا يمكن تصور إساءة استعمال الخير المطلق أمرا كليا أو يمكن أن يستعمل من أجل غاية تافهة أو شريرة بل لا يمكن أن يتكون من دراسة العلوم النظرية طالما ان من المؤكد ان النظر الفلسفي لا يمكن ان يشبع تماما العقل والإرادة البشريين، ان معرفتنا الطبيعية مستمدة من التجربة الحسية ومع ذلك فان الإنسان يتطلع إلى معرفة السبب الأول على نحو ما هو في ذاته وهذه المعرفة لا يمكن اكتسابها عن طريق الميتافيزيقا . [٣٥]

ومما يسترعي الانتباه ان فلسفة توما الاكويني، مثلها مثل فلسفة أوغسطين، فما هي الا مزيج من علم الاخلاق عند فلاسفة العهد القديم والمسيحية وعلم ما وراء الطبيعة عند اليونان، ولكن يقيم أوغسطين أخلاقه على دعائم نظرية المثل عند افلاطون [٣٦] في حين نجد ان الاكويني يتخذ من نظرية الصور عند أرسطو دعامة لأخلاقه، فكل من

---

٣٣ – ينظر : الطويل ، توفيق ، فلسفة الأخلاق ، نشاطها وتطورها . دار النهضة العربية ، ط٣ ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص١٣٠ .

٣٤ – وان اللذة وجدان يقترن بإشباع الرغبات الفردية ، وتبقى مابقى الإشباع الذي اقترنت به ، أما السعادة فقد تتوافر للإنسان برغم الألم الذي ينشأ عن انصرافه عن إشباع شهواته او فشله في إروائها ، وهي ليست مجموع لذات ثائرة تتحق بإشباع رغبات متتالية ، إنما هي لحظات من غبطة في وجود يتألف من إلام عابرة ومتع مشرقة مختلفة متنوعة ، والأخلاقية انما تنشأ حين يصطدم الواجب مع الهوى ، وتبدو الحاجة الى التضحية باللذات الشخصية . ينظر : Wstson . hedonlstic Theories from Aristippus to spencer.A.E. yalor.Epicurus

٣٥ – كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة ، المصدر نفسه ، ص١٣٩. وللمزيد أنظر : كامل ، ماهر ، عبد الرحمن ، عبد المجيد ، مبادئ الاخلاق ، مكتبة الإنجلو المصرية ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص٧٩.

٣٦ – للمزيد إنظر : أفلاطون ، الجمهورية ، ترجمة : فؤاد زكريا ، الهيئة المصرية العامة ، (ب،ط) ، القاهرة، ١٩٧٤، ص٣٥٤.

أوغسطين والاكويني يعتقد ان أسمى مراتب الخير الذي يفعله الإنسان هو الجهاد في سبيل الوصول إلى الكمال الإلهي، ولكنهما يسلكان سبلا مختلفة نوعا ما لبلوغ هذا الكمال، فبينما يؤكد أوغسطين مع أفلاطون ان الرجل الصالح يقلد مثال الخير الموجود في السماء لنقتدي به جميعا، لكن الاكويني يذهب مع أرسطو إلى ان الرجل الصالح يتطور طبقا لصورة الخير الحاصلة في كل شيء ، والتي تساعدها إعمالنا الخيرة على بلوغها مرحلة تطور أسمى .[٣٧]

وربما ذهب أرسطو إلى ان خير الإنسان يعتمد على دراسة العلوم النظرية، إلا انه كان يتحدث عن " السعادة الناقصة تلك التي يمكن بلوغها في هذه الحياة الدنيا، ولا يمكن للسعادة الكاملة أو الغاية المطلقة أن توجد في أي شيء مخلوق ، وإنما في الله فحسب، الذي هو نفسه الخير الأقصى غير المتناهي، فالله هو الخير الكلي بطريقة عينه ، وعلى الرغم من انه غاية كل شيء، المخلوقات المادية والعقلية في آن واحد، فالمخلوقات العقلية هي وحدها التي يمكن أن تبلغ هذا الخير النهائي من طريق المعرفة والحب، والمخلوقات العقلية هي وحدها القادرة على بلوغ رؤية الله التي تكمن فيها وحدها السعادة الكاملة ". [٣٨]

ونجد معنى أخلاقيا متكاملا في الدليلين الرابع والخامس، من أدلة وجود الله عند توما الاكويني، فيبدأ بالاعتراف بوجود درجات مختلفة للكمال في الأشياء المتناهية، ثم يقول ان هذا يفترض وجود كائن تام الكمال، وفي الدليل الخامس يشير إلى أن الأشياء غير الحية في الطبيعة تبدو موجهة نحو غاية ما، لأن العالم يسوده نوع من النظام، وهذا دليل على وجود عقل خارج عن العالم، تلبي غايته على هذا النحو، ما دام من المستحيل أن تكون للأشياء الجامدة غايات في ذاتها، وهذه هي الغائية .[٣٩]

وفي هذه الحياة الدنيا يستطيع الإنسان أن يعرف ان الله موجود كما يستطيع أن يصل إلى فكرة تشبيهية ناقصة عن طبيعة الله لكنه يستطيع في حياة قادمة أن يعرف الله كما هو في ذاته، وليس ثمة غاية أخرى تشبع الإنسان تماما، يقول القديس توما الاكويني ان أرسطو كان يتحدث عن السعادة الناقصة، وهي تلك التي يمكن بلوغها في هذه الحياة الدنيا، إلا ان أرسطو لا يقول شيئا في كتاب الاخلاق عن أية سعادة أخرى، فالأخلاق عنده هي أخلاق السلوك البشري في هذه الحياة ، في حين ان القديس توما لم يتقدم كثيرا قبل أن يضع في اعتباره ان السعادة الحقيقية يمكن بلوغها فقط في

---

٣٧ – ينظر : توماس ، هنري ، عظماء الفلاسفة في الشرق والغرب ، سيرهم وكيف نفهمهم . تر ، زكي نجيب محمود ، دار بيبلون ، (ب،ط) ، باريس ، (ب،ت) ، ص١٨٣.

٣٨ – كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة ، المصدر السابق، ص١٣٩.

٣٩ – ينظر : رسل ، برتراند ، حكمة الغرب ، ج١ ، تر ، فؤاد زكريا ، المجلس الوطني للثقافة والفنون ، (ب،ط) ، الكويت ، ١٩٨٣ ، ٣٠١.

الحياة القادمة ، وهذه السعادة تعتمد أساسا على رؤية الله ، رغم انها تشمل بالطبع إشباع الإرادة [٤٠] في حين ان الخيرات الأخرى مثل جمعية الأصدقاء، فمنها تسهم في الوجود الخير للسعادة رغم انه لا يوجد خير سوى الله يكون ضروريا للسعادة . ولهذا فان النظرية الأخلاقية عند القديس توما ترى في الحال انها تتحرك في مستوى مختلف عن مستوى الأخلاق عند أرسطو ، وبغض النظر عن استعمالاته الكثيرة لمصطلحات أرسطو، فان إدخاله لفكرة الحياة الأخرى ولرؤية الله في النظرة الأخلاقية، تجعلها غريبة عن فكر أرسطو، فما يسميه أرسطو بالسعادة يسميه القديس توما بالسعادة الناقصة أو السعادة الزمانية أو السعادة التي يمكن بلوغها في هذه الحياة الدنيا، وهو ينظر إلى هذه السعادة الناقصة على انها توصي بالسعادة الكاملة التي لا يمكن بلوغها إلا في الحياة المقبلة، وهي تعتمد أساسا على رؤية الله .

٢ – عبارة القديس توما التي تقول ان سعادة الانسان الكاملة تعتمد على رؤية الله تثير مشكلة بالغة الصعوبة لكل من يفسر النظرية الأخلاقية عند القديس توما الاكويني، وهي مشكلة على جانب كبير من الأهمية أكثر مما يبدو لأول وهلة . والطريق المألوف لعرض النظرية الأخلاقية عنده بتمثلها في أخلاق أرسطو، بمقدار ما تتسق مع موقف القديس توما كمفكر مسيحي، وإذا قال قائل ان القديس توما بوصفه فيلسوفا اخلاقيا ينظر إلى الإنسان في سياق النظام الطبيعي [٤١] دون الإشارة إلى غايته التي تعلو على الطبيعة ومن ثم فهو عندما يتحدث عن السعادة بوصفه فيلسوف أخلاقي إنما يتحدث عن السعادة الطبيعية وعن بلوغ الخير الأقصى، الذي هو الله ، المتاحة أمام الإنسان في النظام الطبيعي ، دون أن يكون الفضل الذي يعلو على الطبيعة ضروريا، فلا بد أن يكمن إختلافه مع أرسطو في واقعه وانه – على خلاف أرسطو انه أدخل موضوع الحياة الأخرى المقبلة، وهو موضوع لزم أرسطو الصمت بصدده، ان السعادة لا بد أن تعتمد أساسا على الفلسفة الطبيعية، وحب الله، يمكن بلوغهما، في هذه الحياة الدنيا، السعادة الطبيعية الناقصة ، وفي الحياة الأخرى المقبلة ،

---

٤٠ – ان موضوع الارادة ، هو الخير المعقول وان الارادة تتبع العقل واذا كان تعقل الله هو عين وجوده كان وجوده ايضا هو عين ارادته .وتبقى الارادة تميل نحو الخير المعقول ،والمعقول يقال بالاضافة الى العاقل .فلا بد وان عاقل الخير من حيث هو كذلك يميل اليه ويشتاق شوقا طبيعيا اليه . ينظر: غالي ، ميلاد ذكي ، الله في فلسفة القديس توما الاكويني . دار المعارف ، (ب،ط) ، الاسكندرية ، (ب، ت) ، ص٧٧.

٤١ – ومما يشار إليه ومن دون أي شك ان الأخلاق المسيحية قبل قبل قسطنطين ، كانت اسمي جدا من الأخلاق في أوساط الوثنيين ، ذلك لأنها كانت تقترب من الأخلاق الطبيعية وفي نظامها الطبيعي ، فكان المسيحيون يضطهدون احيانا ، و كانوا في معظم الاحيان في موقف الضعفاء بالنسبة الى منافسيهم من الوثنيين ، لكنهم امنوا ايمانا قويا ان صاحب الفضيلة يكون في الجنة ، وعقاب الاثم يكون في النار ، وكانت مبادئهم الخلقية فيما يختص بالعلاقة الجنسية على درجة من الصرامة قل مثيلها في العالم القديم .للمزيد ينظر : رسل ، برتراند ، تاريخ الفلسفة الغربية . الكتاب الثالث ، المصدر السابق ، ص٤٦.

السعادة الطبيعية الكاملة ، والافعال الخيرة هي الأفعال التي تؤدي إلى – أو هي بالفعل تتفق مع – بلوغ هذه السعادة، وواقعة ان القديس توما يتحدث عن بلوغ رؤية الماهية الإلهية، وهي غاية الإنسان التي تعلو على الطبيعة ، ولا يمكن بلوغها بدون النعمة أو الفضل الإلهي الذي يعلو على الطبيعة، عندما كنا نتوقع منه أن يواصل الحديث بوصفه فيلسوفا أخلاقيا، لا بد ان يعود عندئذ إلى واقعة انه لم يفصل فصلا منهجيا من الناحية العملية بين دور الفيلسوف وعالم اللاهوت فيتحدث أحيانا على انه أحدهما، ويتحدث أحيانا أخرى على انه الأخر دون أي إشارة واضحة إلى ان رؤية الله على انها تعني ليس رؤية الماهية الإلهية، التي تعلو على الطبيعة بل معرفة الله فقط التي يمكن للإنسان ان يبلغها في الحياة الاخرى ما لم يكن للإنسان غاية تعلو على الطبيعة، وبمثل هذه الطريقة يستطيع المرء أن يجعل من القديس توما فيلسوفا أخلاقيا أكمل الأخلاق الأرسطية، بان قدم النظر في موضوع الحياة الأخرى .[٤٢] والنظر هو هبة الإنسان دون غيره من الكائنات، ومن أجل هذا وجب العزوف عن الشهوات والحرص على إطاعة أوامر العقل ، وقد تمثلت هذه النزعة في تفكير سقراط وأفلاطون وأرسطو والرواقية والأبيقورية سابقا .[٤٣]

وأتباع القديس توما رأوا ان هذا هو المعنى الصحيح . بل رأوا انه يتحدث كذلك عن الرغبة الطبيعية لرؤية الله (السعادة الكاملة المطلقة)، يمكن أن تعتمد فقط على رؤية الماهية الإلهية، ويقول بعض الشراح ان ذلك لا يشير إلى رؤية الله على انه الخير الأقصى، كما هو في ذاته، بل يشير فقط إلى رؤية الله على انه السبب الأول، لكن كيف يمكن للقديس توما أن يتحدث عن معرفة الله سببا أول كما لو كانت هذه المعرفة هي – أو يمكن أن تكون – رؤية الماهية الإلهية ، إننا بنور العقل الطبيعي نستطيع أن نعرف الله سببا أول، لكن القديس توما يقرر انه مطلوب من أجل السعادة الكاملة ان يصل العقل إلى الماهية ذاتها للسبب الأول، ومن ناحية أخرى تعتمد السعادة المطلقة على رؤية الماهية الإلهية التي هي نفسها ماهية الخير، وهناك في داخل الإنسان رغبة طبيعية لبلوغ مثل هذه الرؤية فمن الطبيعي أن يرغب الإنسان في معرفة ماهية وطبيعة السبب الأول، وسواء كان القديس توما على حق في قوله هذا أم لا ، فانه مما لا يمكن تصوره أن يكون القديس توما يقصد ما يسميه كاجيتان cajetan بقوة الطاعة أو الإستسلام فماذا يمكن أن تكون الرغبة الطبيعية ، إذا لم تكن شيئا إيجابيا .[٤٤]

فنلاحظ ان المذهب العقلي يتنافى في جملته مع الروح المسيحية التي أقامت الأخلاقية على الوجدان ، وجاهرت بان الله هو الذي يحدد الفضيلة ويميز بين الخير والشر، وأكدت ان الفضائل إذا انقطعت صلتها بالله كانت رذائل ، فمن الخطأ أن يزعم بعض الأخلاقيين، ان الفضائل تطلب لذاتها وليس من أجل غاية تقوم وراءها، فان مثل هذه الفضائل لا تعدو ان تكون رذائل، وبهذا أصبحت الفضيلة لا تطلب لذاتها – كما يقول الحدسيون – ولا من أجل نتائجها النافعة – كما يقول التجريبيون – لأنها تتمشى مع إرادة الله .[٤٥]

---

٤٢ - كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة . المصدر السابق، ص١٤٠.

٤٣ - الطويل ، توفيق ، فلسفة الأخلاق ، المصدر السابق ، ص١٣١.

٤٤ - ينظر : كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة ، المصدر نفسه ، ص١٤١.

٤٥ - ينظر : الطويل ، توفيق ، فلسفة الاخلاق ، المصدر السابق، ص١٣١.

من هذا حاول القديس توما بوصفه عالما في المنطق والماورائيات واللاهوت، أن يوفق بين فلسفة أرسطو العقلانية والإيمان المسيحي، فقد وضع تناسقا بين المعرفة والإيمان فحيثما يقع الفكر الفلسفي في تناقضات (كمشكلة الخلق في الزمان مثلا)، يجب الرجوع إلى الإيمان، وعليه يعد توما الاكويني مؤسس (العلم) اللاهوتي من حيث انه علم نظري وليس علما عمليا فقط، كما قال به فيما بعد دانز سكوت واوكام .[٤٦]

ونتابع ان العقل الإنساني يطمح دائما إلى وصف الله بصفات إيجابية . " ولا سبيل إلى ذلك بإدراك مباشر، بل بقياس النظير، ذلك ان المخلوقات هي آثار الله، فلا بد أن نجد فيها إذن آثار صفات الله الإيجابية أو الثبوتية، مع مراعاة الفارق الهائل بين الفاني والباقي، بين المتناهي واللامتناهي، بين العلة والمعلول ويكون ذلك بالنظر الإيجابي في كمالات المخلوقات ووصف الله بهذه الكمالات مرفوعة إلى أعلى درجة إنما يمثل الجانب الأخلاقي الإيجابي، فنقول ان الله خير، حق، عدل، ولهذا فان أسماء هذه الكمالات تليق بالذات الإلهية، وعلينا من ناحية أخلاقية ان نراعي هذه الصفات مقولة بالاشتراك، أي لها معنى بالنسبة إلى الله غير معناها بالنسبة إلى مخلوقاته ومن هذه الكمالات المشتركة تناول توما، ثلاثة تعد من أكبر الكمالات وهي: العلم ، والإرادة ، والحياة ". [٤٧]

ومن ناحية أخرى فمن غير الممكن أن نفترض أنه كان يقصد إنكار الطابع العفوي الذي يعلو على الطبيعة للرؤية السعيدة لله ، ولقد تخلص بعض الشراح من أمثال (سوريز) من المشكلة بقولهم انه كان يريد أن يكون وجود الرغبة الطبيعية المشروطة داخل الإنسان، أي المشروطة بان يرفع الله الإنسان إلى النظام الذي يعلو على الطبيعة، وان يعطيه الوسائل لبلوغ الغاية التي تعلو على الطبيعة، وهذا موقف عقلاني بغير شك لكن هل من الضروري أن نفترض انه كان يقصد بالرغبة الطبيعية أكثر من الرغبة في معرفة طبيعة السبب الأول، وهي رغبة موجودة في (العيني) أي إننا نقدم ارتفاع الإنسان إلى النظام الذي يعلو على الطبيعة ويتحدد مصيره بالغاية العليا التي تعلو على الطبيعة ، يعني الرغبة في رؤية الله ، وبعبارة أخرى انه درس الإنسان العيني، وعندما قال انه بداخل الإنسان (رغبة طبيعية) فانه كان يعني ان الرغبة الطبيعية في الإنسان هي أن يعرف بقدر المستطاع ان السبب المعلق في النظام الفعلي العيني، هو الرغبة في رؤية الله ، تماما مثلما ان الإرادة تتجه بطبيعتها نحو الخير الكلي، ولا يمكن للحركة (الإرادة) هذه ان تنال الرضا والاذعان إلا في حيازة الله . [٤٨]

---

٤٦ – جوليا ، ديديه ، قاموس الفلسفة . نقله الى العربية ، فرنسو أيوب ، وآخرون ، مكتبة أنطوان ، ط١ ، بيروت ١٩٩١.، ص١٥٤.

٤٧ – بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة .ج١، المصدر السابق ، ص٤٣٠.وللمزيد عن الأخلاق من خلال صفات الله أنظر : أفلاطون ، غورغياس ، ترجمة محسن حسن ظاظا ، مراجعة علي سامي النشار ، الهيأة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص٥٠٧.

٤٨ – كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة ، المصدر السابق، ص١٤٢.

على ان العقل الانساني ما هو إلا القاعدة القريبة للقانون الطبيعي، أما القاعدة البعيدة والأولى فهي القانون الأزلي، أي العقل الإلهي الذي يرى في الذات الإلهية جميع الطبائع ونظام علاقاتها، والإرادة الإلهية التي حققت الطبائع فأرادت أن يحترم هذا النظام . [٤٩]

وهكذا يكون العقل قد خلق من أجل الحقيقة ولا يمكن أن يشبع إلا برؤية الحقيقة المطلقة، لكن ؟ إذا هل ذلكيعني ان لدى الإنسان رغبة طبيعية في الرؤية السعيدة، مستخدمين كلمة طبيعي على انها معارضة لما فوق الطبيعة ومن الصعب في هذه الحالة ان تحافظ على عفوية النظام فوق الطبيعي – او أن تكون كلمة طبيعي تعني عنده ما نستخدم فيه الكلمة بصفة مستمرة بمعنى مضاد لـ (غير الطبيعي) بدلا مما هو فوق الطبيعي مما يعني تاويله بطريقة تعسفية غير منصفة، لكنه اعتقد انه تحث بطريقة جيدة جدا على نحو ما كان يمكن ان يتحدث القديس أوغسطين وهو يدرس الإنسان العيني، الإنسان الذي يدعى إلى غاية تعلو على الطبيعة ، وانه عندما يقول إن لدى الإنسان رغبة طبيعية لمعرفة ماهية الله ، فانه لا يقصد بذلك ان يقول أن الإنسان في حالته الطبيعية المفترضة ،لا بد أن كانت لديه مثل هذه الرغبة (الحركة الطبيعية) للعقل البشري نحو الحقيقة هو في الواقع de facto رؤية الله ليس لأن العقل البشري يستطيع بذاته أن يرى الله سواء في هذه الحياة الدنيا أو في الحياة الأخرى ، لكن في الواقع بسبب ان غاية الإنسان الوحيدة هي غاية تعلو على الطبيعة ، ولا أعتقد ان القديس توما نظر في الحالة الطبيعية المفترضة للإنسان على الإطلاق ، عندما تحدث عن الرغبة الطبيعية ، ولو صح ذلك لكان من الواضح أن يعني ان (نظريته الأخلاقية) لا يمكن أن تكون نظرية فلسفية خالصة .[٥٠]

نجد في مناخات النظرية الأخلاقية عند القديس توما ، تاكيده ان غاية الإنسان الحقة هي ان يصل إلى الحقيقة في الحياة الدنيا [٥١] ، وان يشهد هذه الحقيقة في الله في الحياة الأخرى ، ذلك اننا إذا سلمنا مع أرسطو بان ما يسعى إليه الإنسان هو السعادة، فأين يجد أحسنها ؟ انه لا يجدها في الملاذ الجسمية ، ولا في الشرف ، ولا في غيرها من الأعمال. بل يجدها في الأعمال الصادرة عن الفضيلة الحقة ، وان حصل في هذه كلها على البهجة، ولنسلم كذلك بأن (النظام

---

٤٩ – كرم ، يوسف ، تاريخ الفلسفة الاوروبية في العصر الوسيط . المصدر السابق ، ص١٩٨.

٥٠ – كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة . المصدر السابق ، ص١٤٣ .

٥١ – والحياة هي جهاد متصل للوصول الى الكمال . وكل الخليقة الزائلة ان هي الا محاكاة فطرية للصورة الالهية ، وهكذا يريد الله رادته هي بداية الوجود ونهايته . وجميع اطراف العالم المتناقصة – التي نراها ونحس بها من الم ولذة ومرض وصحة وحسد ورحمة وانتقام وعفو وموت وحياة – اشبه ماتكون بالوان المنشور المختلفة . فاذا امتزجت جميعا فانها تذوب في بهاء خير الله وعلمه ومحبته . ولذلك فكل ماهو خير ياتي من عند الله ، كما ان كل مایاتي من عند الله خير . انظر: توماس، هنري، عظماء الفلاسفة في الشرق والغرب ، المصدر السابق ، ص١٩٢.

الكامل للجسم ضروري للسعادة الكاملة)، ولكن ليس في هذه الطيبات كلها ما يضارع السعادة الهادئة الشاملة المتصلة الناشئة من الفهم، ولعله كان يذكر وقتئذ قول فرجيل : (ما أسعد من استطاع أن يعرف علل الأشياء) .[٥٢]

ان نظريته الأخلاقية، هي من ناحية فلسفية، ومن ناحية أخرى لاهوتية، فقد استفاد من الأخلاق الأرسطية ، لكنه جعلها تتناسب مع الموقف المسيحي، ولقد كان أرسطو نفسه قبل كل شيء يدرس الإنسان العيني بمقدار معرفته لما يكون عليه الإنسان العيني بالفعل: أما القديس توما فقد كان يعرف أفضل بكثير من أرسطو ماذا يكون عليه الإنسان العيني بالفعل، ومن ثم فقد كان له ما يبرر استعماله لفكر أرسطو عندما اعتقد انه فكر سليم ووجده متفقا مع موقفه المسيحي .[٥٣]

وهنا نلاحظ ان علم الأخلاق التومائي هو أيضا مستوحى من الأخلاق الأرسطية، لقد حدد أرسطو للنشاط الأنساني غاية في السعادة، ووضع السعادة في الممارسة العليا للملكة البشرية العليا وهي العقل، ولكن العمل الأسمى للعقل هو التأمل الإلهي ، تلك إذن هي السعادة، أن نتامل الله، ويستمد القديس توما هذه النظرات، ولكنه يدخل عليها تحويرا مهما، فبالنسبة إلى أرسطو، يجب أن تتحقق السعادة في حدود الوجود الأرضي، أي في ظروف زائلة غير مستقرة . ويجعل القديس توما السعادة في متناول الجميع، ولكنه يحتفظ بها للآخرة، فالسعادة هي عنده ستكون أيضا تأمل الله . ويسميها باللغة اللاهوتية (الرؤيا الطوباوية) ،ونرى هنا – ولكن الأمثلة تكثر – مقدار الحرية التي يكيف بها القديس توما فكرة أرسطو لغايته، فهو يكن للفيلسوف الإعجاب الأكثر إخلاصا، ولكنه ليس بعالم آثار يقصر همه الوحيد على بعث ماض مجيد، انه يفكر بعصره بإهتمام ثابت في أحداثه الآنية، وحتى انه يوجد في مشروعه هذا شيء من الثورية، ولم يخطيء معاصريه في فهم ذلك، وإذا كان بعض المعجبين بالقديس توما، قد إرتأوا أن يجعلوا من التومائية مذخرا مثاليا لجميع أنواع المذاهب المحافظة ، فانهم يكونون بعملهم هذا قد حفظوا الكثير من الحرفية في عمله وما إستطاعوا بكل تأكيد إكتناه روحه .[٥٤]

ولا بد من القول ان القديس توما تحدث عن السعادة الناقصة للخير الزماني للإنسان، لكن ذلك لا يعني انه كان يدرس الانسان في الحالة المفترضة الخالصة للطبيعة، فإذا كان القديس توما يقول ان الكنيسة قد قامت لمساعدة الإنسان لبلوغ خيره الذي يجاوز الطبيعة، كما قامت الدولة لمساعدة الإنسان لبلوغ خيره الزمني، فسوف يكون محال أن نستنتج من ذلك انه عند دراسته للإنسان وعلاقته بالدولة فانه درس الإنسان في حالته المفترضة الخالصة، انه يدرس الإنسان العقلي من زوايا معينة ووظائف خاصة ، وفضلا عن ذلك فان القديس توما، لم يتجاهل واقعة ان بلوغ الإنسان لغايته الحقيقية بقواه الخاصة غير ممكن بدون مساعدة، ولكن درس الانسان في نظريته (الاخلاقية) من حيث انه متجه، ومدعو نحو هذه

---

٥٢ – ينظر : ديوارنت ، ول ، قصة الحضارة ، عصر الايمان . تر ، محمد بدران ، الجامعة العربية ، ط٢ ، (ب،م) ، (ب،ت) ، ص١٣٧.

٥٣ – كوبلستون ،فردريك ، تاريخ الفلسفة . المصدر السابق ، ص١٤٣.

٥٤ – ينظر : جونو ، ادوار ، الفلسفة الوسيطة في المغرب المسيحي . تر ، علي زيعور ، المنشورات العربية ، (ب،ط) ، (ب،م) ، (ب،ت) ، ص٨١ .

الغاية ، وعندما نجيب عن السؤال . إذا ما وصلنا إلى السعادة ذات مرة فهل يمكن لنا أن نفقدها ؟ فان القديس توما يجيب ان السعادة الناقصة في هذه الحياة الدنيا يمكن لنا أن نفقدها ، أما السعادة الكاملة ، في الحياة الأخرى فلا يمكن أن نفقدها طالما انه مستحيل على أي إنسان شاهد الماهية الإلهية ذات مرة ان لا يرغب في رؤيتها ، وذلك يبين لنا بوضوح تام انه يتحدث عن السعادة التي تعلو الطبيعة ، وهو يقول في رده على الاعتراض الثاني ان الضرورة الطبيعية هي التي تأمر الإرادة حتى النهاية . غير ان ذلك لا يعني أن الغاية الأخيرة التي تحدث عنها انها طبيعية على نحو خالص ، وإذا ما كانت تعلو على الطبيعة – ان الله لا يمكن أن يخلق إنسانا دون توجيهه إلى هذه الغاية ، إن الإرادة ترغب في السعادة أو الغبطة في الضرورة والواقع ان هذه الغبطة لا يمكن أن توجد إلا في رؤية الله . (٥٥)

وهنا يقتبس القديس توما الأفكار الأساسية للأخلاق الطبيعية عن أرسطو، فمن الأخلاق النيقوماخية يأخذ الفكرة القائلة ان إرادتنا تنزع نزوعا طبيعيا وعفويا نحو الخير الذي هو غايتها، والفكرة القائلة ان حريتنا في الاختيار ليس قوامها أن نختار غايتنا، وما هي بحرة ، بل ان نختار بالتروي أعمال العقل، الوسائل التي تتأتى بنا هذه الغاية، ينبغي إذن أن يكون هناك نور طبيعي، يهيئ مقدمات استدلالاتنا العلمية: ويتجلى هذا النور الطبيعي فيما يسميه القديس توما القانون الأزلي الذي هو عبارة عن وضع طبيعي وثابت ينقسم إلى قواعد جزئية، ومنه تنبع استقامة الإرادة . وما الفضائل إلا عادات مستفادة، مصدرها قدرتنا، بفضل حريتنا في الاختيار، على اختيار أحسن الوسائل . وتفترض هذه النظرية ان شرائع الأخلاق والقانون مبنية على أساس عقل الله الذي له تخضع إرادته بالذات، ما القانون الأزلي إلا عقل الحكمة الإلهية ، وبما ان الإرادة الإلهية عاقلة ، فانها خاضعة لهذا العقل ، ومن ثم للقانون الأزلي . وثبات القانون هذا في العقل، الذي يستعرض عليه الاوكاميون (٥٦)، سيبقى مع ذلك في أساس شطر بكامله من النظريات الحديثة في القانون، وعن القديس توما سيأخذه في القرن السابع عشر غروتيوس، بوساطة السكولائي فاسكيز، المتوفي سنة ١٥٠٦.(٥٧)

ومن ثم ففي استطاعتنا أن نقول ان الوجود البشري العيني يرغب بالضرورة في رؤية الله، وهذا التأويل يؤكد نظرية القديس توما في كتابه (الخلاصة ضد الامم) فهو يذهب أولا وقبل كل شيء إلى ان غاية كل جوهر عقلي أن يعرف الله فجميع المخلوقات متجهة نحو الله ، وهي متجهة نحو الغاية الأخيرة، والمخلوقات العاقلة تتجه إلى الله أساسا وبصفة خاصة ، من طريق ملكتها العليا أي العقل لكن على الرغم من ان غاية الإنسان وسعادته لا بد أن تكمن أساسا في معرفة الله ، والمعرفة المقصودة ليست هي المعرفة التي نصل إليها فلسفيا من طريق البرهان ، فمن طريق البرهان نصل بالأحرى إلى معرفة ان الله ليس على نحو ما هو عليه، ولا يمكن للإنسان أن يكون سعيدا ما لم يعرف الله على ماهو عليه، وان السعادة البشرية لا يمكن ان تكمن في معرفة الله التي نحصل عليها عن طريق الإيمان، على الرغم من اننا

---

٥٥ – كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة . المصدر السابق ،ص١٤٤.

٥٦ – ومنهم وليم الاوكامي ، لاهوتي انكليزي ، ولد في اوكام وهي قرية تقع الى الجنوب من لندن . بين عام ١٢٩٥ و١٣٠٠ . ومات في ١٣٥٠ . والاوكامية هي نقطة الوصول الفلسفية واللاهوتية لحركات وثيقة الصلة بتاريخ المنطق الوسيطي . ينظر : طرابيشي ، جورج ، معجم الفلاسفة . المصدر السابق ، ص٧٣٥ .

٥٧ – برهييه ، اميل ، تاريخ الفلسفة ، العصر الوسيط والنهضة . المصدر السابق، ١٩٤.

منطريق الإيمان نكون قادرين على معرفة المزيد عن الله أكثر ما نستطيع ان نعرف عن طريق البرهان الفلسفي ، ويتم إشباع الرغبة الطبيعية بالوصول إلى الغاية النهائية أو السعادة الكاملة لكن المعرفة عن طريق الإيمان لا تشبع الرغبة ، بل بالأحرى تشعلها ، طالما ان كل إنسان يرغب في رؤية ما يؤمن به ، ان غاية الإنسان النهائية وسعادته لا بد – من ثم – ان تكمن في رؤية الله على نحو ماهو عليه في ذاته، ورؤية الماهية الإلهية، وهي الرؤية التي وعدنا بها الكتاب المقدس والتي بواسطتها سوف يرى الإنسان الله وجها لوجه . [٥٨]

وهذه الرؤية إذن تمثل السعادة الكاملة ، لكن السعادة الدنيوية العليا نفسها لا تترك الإنسان راضيا كل الرضا قانعا كل القناعة ، فهو يعرف معرفة غامضة، أن السعادة الكاملة الحقة لا يمكن أن تنال في هذه الحياة ، وان في داخله صوتا لا يمكن إسكاته يجعله يتوق على الدوام لسعادة ولفهم لا يتأثران بما يتعرض له الآدميون الفانون من تغيرات ومن ظروف الزمان، وقد تجد غير هذه الشهوات ما يشبعها في الطيبات الوسطى، أما عقل الإنسان الكامل فلن يستريح إلا إذا وصل إلى ذروة الحق وجماعه هو الله، ففي الله وحده الخير الأسمى لأنه مصدر كل الطيبات الأخرى، ولأنه علة سائر العلل، وحقيقة كل الحقائق، والهدف الأخير للإنسان هو نور النعيم الباهر – الرؤية التي تهب السعادة .[٥٩]

ما أن نقرأ القديس توما حتى نعرف انه يتحدث عن رؤية الماهية الإلهية إذا شئنا الدقة في التعبير، ومن ناحية أخرى فإن قراءة فكر القديس توما تدل على انه كان على وعي تام بأنه ليس ثمة جوهر مخلوق يستطيع بقواه الطبيعية أن يصل إلى رؤية الله من ماهيته، وانه لبلوغ هذه الرؤية مطلوب أن يكون هناك إرتفاع أعلى من مستوى الطبيعة ، ماذا إذن عن الرغبة الطبيعية، ألم يقل القديس توما صراحة انه طالما ان من المستحيل على الرغبة الطبيعية أن تكون عبثا inane وان الأمر سيكون كذلك ما لم يكن من الممكن الوصول إلى معرفة الجوهر الإلهي [٦٠] ، التي ترغب فيه جميع العقول على نحو طبيعي فمن الضروري القول بأنه من الممكن للعقل أن يرى الجوهر الإلهي حتى على الرغم من ان هذه الرؤية لا يمكن بلوغها بهذه الحياة الدنيا ؟ وإذا كان هناك حقا رغبة طبيعية في رؤية الله ، ألا يتعرض الطابع العفوي للغبطة التي تعلو على الطبيعي للخطر، ويمكن أولا وقبل كل شيء الإشارة مرة أخرى إلى القديس توما يقرر صراحة ان الإنسان لا يستطيع ان يصل إلى رؤية الله [٦١] ، بموجوداته الخاصة فبلوغها لا يكون ممكنا إلا بالنعمة الإلهية على نحو ما يؤكد

---

٥٨ - ينظر : كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة . المصدر السابق ،ص١٤٤ .

٥٩ - ديوارنت ، ول ، قصة الحضارة . المصدر السابق، ص١٣٧.

٦٠ - إذا اتبعنا الترتيب الطبيعي للوجود ، كانت مسألة الله او الأشياء او مسألة تلقاها . هل الله موجود ، كان الرأي السائد ان وجود الله بين بذاته ، والقديس توما يذكر ثلاث حجج بهذا المعنى ويرد عليها فيقدم لنا مثالا واضحا على الفرق الذي يضعه بين العقل والإيمان . للمزيد ينظر : كرم ، يوسف ، تاريخ الفلسفة الاوروبية في العصر الوسيط . المصدر السابق ، ص١٧٣ .

٦١ - أول ما يتعين فعله هو تميز الله من سائر الموجودات ، وهذا ما يدل عليه بالصفات السلبية التي تقول ما ليس هو ، أي التي تنزه عما ليس يليق به باعتباره العلة الأولى ، فتؤدي بنا الى انه تعالى بسيط كل البساطة . وبعد ذلك نضيف إليه الصفات الثبوتية التي تقول ما هو ، أي الدالة على كمالاته ، ونفحص عن النحو الذي به يعبر اسم الصفة عن الذات الإلهية . للمزيد ينظر : كرم ، يوسف ، تاريخ الفلسفة الاوروبية في العصر الوسيط . المصدر نفسه ، ص١٧٨.

بوضوح، لكن من المؤكد ان هناك صعوبة في رؤية كيف لا تعود النعمة الإلهية التي تجعل – هي وحدها – بلوغ الغاية النهائية ممكنة، كيف لا تعود بمعنى ما إلى الإنسان إذا كانت بداخله رغبة طبيعية لرؤية الله إذا من المستحيل على الرغبة الطبيعية ان تكون عبثا، وقد لا يكون من الممكن أن نصل إلى نتيجة حاسمة عن ما يفهمه القديس توما بدقة من الرغبة الطبيعية في هذا السياق، لكن يبدو انه كان ينظر الى الرغبة على انها الحقيقة المطلقة الطبيعية، وعلى العقل أن يعرف الحقيقة المطلقة في ضوء النظام العيني الفعلي .[٦٢]

والنظام العيني الفعلي يستدعي النظر في الإنسان من حيث هو مريد مختار، موضوع الأخلاق، فلا تتناول الأخلاق سوى الأفعال الصادرة عن الإنسان بما هو إنسان، أي الصادرة عن الإرادة العامدة، وتلك الأفعال هي التي تسمى إنسانية بمعنى الكلمة، أما التي تصدر من رؤية وإرادة فالأولى ان تسمى أفعال الإنسان، مثل تحريك اليد أو العبث باللحية مع انشغال الفكر بأمور أخرى، فحقيقة الفعل الإنساني انه المتجه إلى غاية مدركة ومرادة ، وهكذا تكون الغاية مبدأ الأفعال الإنسانية، ويلزم تعين غاية الحياة .[٦٣]

" ان لدى عقل الإنسان توجهات طبيعية نحو السعادة التي لا بد أن تكمن أساسا في معرفة الحقيقة المطلقة ، إلا ان الإنسان في النظام العيني الفعلي ، يتجه نحو غاية تعلو على الطبيعة ولا يمكن ان يرضيه شيء أقل من ذلك وإذا نظر إلى الرغبة الطبيعية في ضوء الوقائع التي نعرفها من طريق الوحي استطعنا أن نقول في هذه الحالة ان لدى الإنسان رغبة طبيعية في رؤية الله ، كما يرغب في البرهنة عليه ".[٦٤]

وفي البرهنة على وجود الله ، يرى الاكويني، انه ليس مع ذلك بهذا الوضوح ، لهذا يصوغ خمسة براهين لإثبات وجود الله، وذلك في كتابه (خلاصة اللاهوت) ، وقد أسست هذه الحجج للاستعداد الطبيعي الذي يؤهل الانسان للتأمل في ذلك القانون الأزلي ، الذي يوفر بعد معرفته السعادة القصوى للإنسان، حينها يتحقق المطلب الإنساني المؤدي إلى الأخلاق .[٦٥]

يقول القديس توما في كتابه عن الحقيقة، ان لدى الإنسان – طبقا لطبيعته – استعدادا طبيعيا لكي يتأمل ما هو الهي بطريقة ما حتى انه يصبح من الممكن بالنسبة للإنسان ان يحصل عليها – بقوة الطبيعة – كما ان اتجاه رغبته نحو الغاية العفوية التي تعلو على الطبيعة رؤية الله، هو عمل من أعمال الطبيعة النعمة الإلهية، وفي هذا المكان لا يسمح القديس توما في ان تكون الرغبة الطبيعية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة رؤية الله، ويبدو انه من المعقول فحسب ان تفترض انه لم يكن يتحدث كفيلسوف في الخلاصة اللاهوتية والخلاصة ضد الأمم عن الرغبة الطبيعية لرؤية الله وانما كان يتحدث كعالم لاهوتي وفيلسوف مجتمعين، اعني انه يفرض سلفا النظام الذي يعلو على الطبيعة ويفسر معطيات التجربة في ضوء هذا الافتراض السابق ، وعلى أية حال فما قلناه ينبغي ان يكون كافيا ليبين الفرق بين آراء أرسطو وآراء القديس توما حول غاية الإنسان .

---

٦٢ – كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة. المصدر السابق ، ص١٤٥.

٦٣ – كرم ، يوسف ، تاريخ الفلسفة الاوروبية في العصر الوسيط . المصدر السابق ، ص١٩٤.

٦٤ – كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة . المصدر نفسه ، ص١٤٦ .

٦٥ – ينظر : بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة . المصدر السابق ، ص٤٢٩.

٣ – وعلى ذلك فالإرادة ترغب في السعادة أو الغبطة بوصفها غاية لها ، وتكون الأفعال البشرية خيرة أو شريرة بمقدار ما تكون – أولا تكون – وسائل لبلوغ تلك الغاية ، فالسعادة لا بد، بالطبع، ان تفهم من حيث علاقتها بالإنسان بما هو كذلك، بالإنسان كموجود عاقل : والغاية هي ذلك الخير الذي يكتمل به الإنسان بوصفه موجودا عاقلا وليس في الواقع كعقل غير متجسد لأن الإنسان ليس عقلا بلا جسد، وإنما بالمعنى الذي يتم فيه الحسي والميل النباتي، لابد أن يكتمل بمساعدة الميل الأول وهو ميل عقلي : الغاية هي التي يكتمل بها الإنسان بما هو كذلك والإنسان بما هو كذلك موجود عاقل ، وليس مجرد حيوان وكل فعل بشري فردي ، أعني كل فعل أما ان يأتي مطابقا لنظام العقل، غايته المباشرة متسقة ومتناغمة مع الغاية في النهاية أو انه لا يتطابق مع نظام العقل أي ان غايته المباشرة تتعارض مع الغاية النهائية ومن ثم فكل فعل بشري امام أما أن يكون خيرا أو شرا .(٦٦)

والشر عند القديس توما من مشاكل الخلق . وفيها يقول " ان الله لا يمكن أن يفعل الشر ، ذلك لأن الشر شيء سلبي، يتنافى مع أخلاق الله، وهو سلبي محض، وهو بالأحرى عدم وجود أولى من أن يكون وجودا ، فإذا أضفناه إلى الله فقد أضفنا إلى الله انه يخلق العدم، وهو لا معنى له، وإنما الشر يجب أن يفسر على أساس انه هذا الشيء الضروري الذي يفترق به المخلوق من الخالق ، فثمة خالق في مرتبة الوجود بين الخالق والمخلوق، وإلا لكان الخالق والمخلوق شيئا واحدا : وهذا الفارق في مرتبة الوجود هو الشر ، والموجودات تترتب في الواقع ترتيبا تنازليا بحسب درجة الشر، أي بحسب النقص في المخلوق بالنسبة للخالق، فنجد في القمة ما هو معقول صرفا تقريبيا، ثم يليه ما هو اقل درجة في المعقولية ، وهكذا نجد سلسلة تصاعدية في الموجودات . والشر فيها هو هذا الإنحراف الضروري اللازم لصفة الخلق بإزاء الخالق . هكذا أسس القديس توما للفعل الأخلاقي ".(٦٧)

" والفعل غير المتراوي مثل الفعل المنعكس الذي يهش ذبابة، قد يكون محايدا لكن لا يمكن أن يكون هناك فعل بشري متراوي ومحايد، أعني لا يكون خيرا ولا شرا " . (٦٨)

كذلك فان الشر في نظام توما الاكويني، هو انعدام النظام في ترتيب الوسائل من أجل تحقيق الغايات، أي انه سلب، ولكن يمكن مع ذلك تقدير علة بالعرض من الشرور ، فقد يقع الشر بسبب انعدام مبدأ من المباديء التي تتحكم في العقل مثل تفسير العيب في حركة حيوان بالعيب في العضو المحرك مثلما يحدث للأعرج ، ويؤكد توما من ناحية أخرى ان سبب الشر يقوم دائما في خير ما، لكن الله لا يمكن أن يكون السبب في أي شر، لأنه لما كان الشر نقصا في الفعل ، فان مصدر هذا الشر هو الفاعل ، ذلك ان الشر ، لو نظر إليه في ذاته ، ليس بشيء ، فلا يمكن إذن أن يكون الله سببه. فان تساءلنا : ومن إذن سبب الشرور في العالم ؟ فان الجواب – عند القديس توما الاكويني – هو تناهي المخلوقات . وعليه فان (النظرية الاخلأقية) عنده تقوم كذلك على الوعي بفعل الشر تماما، مثلما هو الوعي التام بفعل الخير، ومنها تتأسس لديه القاعدة الاخلاقية ، في ان نعرف الأشياء وعللها وذواتها وطرق تحصيل السعادة ، لأن أخلاق توما تقوم على السعادة الكاملة .(٦٩)

---

٦٦ – ينظر : كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة ، المصدر السابق ، ص١٤٥ .

٦٧ – بدوي ، عبد الرحمن ، فلسفة العصور الوسطى . المصدر السابق ، ص١٥٩ .

٦٨ – كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة . المصدر السابق ، ص١٤٦.

٦٩ – ينظر : بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة ، المصدر السابق ، ص٤٣١.

ويرى، رسل في كتابه تاريخ الفلسفة الغربية، وفي إطار تحليله لمفهوم الشر عند القديس توما، " ليست الحكمة الإلهية بالمتناقضة مع وجود الشر، او الوجود العرضي للأشياء – او الإرادة الحرة – او المصادفة او الحظ ، فالشر يأتي نتيجة لعلل ثانية ، كما يحدث في حالة الفنان الماهر ومعه أدوات رديئة ". [٧٠]

٤ – القديس توما يتابع أرسطو في دراسته للفضائل الأخلاقية والعقلية بوصفها عادات ، كصفات خيرة أو عادات للذهن التي يعيش الإنسان بواسطتها حياة سليمة وتتشكل العادة الفاضلة بواسطة أفعال خيرة وتسهل إنجاز أفعال تالية للغاية نفسها، ومن الممكن أن يكون لديك الفضائل العقلية باستثناء الحيطة بدون فضائل أخلاقية ومن الممكن أن يكون لديك الفضائل الأخلاقية بدون فضائل عقلية باستثناء الحيطة والفهم ، وتعتمد الفضائل الأخلاقية على الوسط وموضوع الفضيلة الأخلاقية هو ضمان أو تسهيل التطابق مع قانون العقل في الجانب الشهواني من النفس وغير أن تطابق تجنب التطرف في الإفراط أو التفريط ، وذلك يعني ان الشهوة أو اانتقال يرتد إلى قانون العقل، وبالطبع إذا ما أراد المرء أن يدرس فحسب المطابقة مع قانون العقل، فان الفضيلة ستكون تطرفا وتشويها مع قانون العقل ، سواء في حالة الإفراط أو التفريط ، تشكل الطرف الأقصى إلى الآخر، القول بان الفضيلة تعتمد على الوسط لا يعني القول بانها تعتد على الوسيطة لكن إذا ما نظر المرء إلى الفضيلة الأخلاقية من زاوية المادة التي تعالجها، أي الانفعال الطاغي أو الشهوة – فانها عندئذ تظهر معتمدة على الوسط : والأخذ بنظرية أرسطو هذه قد يبدو انه يجعل من الصعب الدفاع عن العذرية أو البكارة أو الفقر الإرادي، مثلا إلا ان القديس توما يشير إلا أن العفة الكاملة مثلا لا تكون فاضلة إلا عندما تكون متطابقة مع العقل مستتيرة بنور الآلهة فإذا ما لحظنا انها متطابقة مع إرادة الله أو الدعوة لغاية الإنسان التي تعلو على الطبيعة، فانها تكون متفقة مع قانون العقل وعلى هذا النحو كان استعمال القديس توما لكلمة الوسط : ومع ذلك فإذا ما لحظناها تتجه نحو الخرافة أو العنجهية فانها لابد أن تكون إسرافا ويمكن بصفة عامة النظر إلى الفضيلة على أنها طرف أقصى في العلاقة من جانب وعلى انها وسط من جانب آخر، وبعبارة أخرى : العامل الأساسي في العقل الفاضل هو تطابقه مع قانون العقل وتوجيهه لأفعال الإنسان إلى الغاية النهائية . [٧١]

وهنا يبدو القديس توما يقتفي أثر أرسطو في كتابه (الأخلاق إلى نيقوماخوس)، وفي اهتمامه بفضيلة العدل . ذلك ان الفضائل الأخرى ينظر اليها من ناحية الفاعل، أما العدل فينظر فيه إلى طرفين على الأقل، وترتبط بها فكرة المساواة : والمساواة أما طبيعية، وأما إصطلاحية . [٧٢]

٥ – قانون الأفعال البشرية ومعيارها هو العقل ، فالعقل هو الذي يوجه نشاط الإنسان نحو غايته ومن ثم فالعقل هو الذي يصدر الأوامر وهو الذي يفرض الالتزام لكن ذلك لا يعني أن العقل هو المصدر التعسفي للالتزام أو انه ممكن أن يفرض أي التزامات كما يشاء ، فالموضوع الأول للعقل العلمي هو الخير الذي له طبيعة الغاية، والعقل العلمي يعرف ان الخير هو غاية السلوك البشري ، ويعلن عن مبادئه الأولى، فلا بد من عمل الخير ومتابعته وكذلك تجنب الشر . لكن الخير بالنسبة للإنسان هو الخير الذي يناسب طبيعته، وهو ذلك الذي لديه بداخله ميل طبيعي بوصفه موجودا عاقلا، وهكذا فالإنسان بالإشتراك مع جميع الظواهر الأخرى لديه ميل طبيعي بالمحافظة على وجوده ، وعندما يتأمل العقل هذا الميل

---

٧٠ – رسل ، برتراند ، تاريخ الفلسفة الغربية ، الكتاب الثاني ، المصدر السابق، ص٢٣٨ .

٧١ – ينظر : كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة ، المصدر السابق، ص١٤٧.

٧٢ – ينظر : بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة . ج١، سليمانزاده ، ط١ ، قم ، ١٤٢٧ هـ ، ص٤٣١.

يأمر بأن تتخذ الوسائل الضرورية للمحافظة على الحياة ، بل على العكس ينبغي أن نتجنب الإنتحار ، ومن ناحية أخرى فالإنسان بالاشتراك مع الحيوانات الأخرى ، لديه ميل طبيعي لنشر النوع ، وتربيته كالأطفال، في حين انه بوصفه موجودا عاقلا لديه ميل طبيعي للبحث عن الحقيقة لا سيما فيما يتعلق بالله ، ومن ثم فالعقل يأمر بانتشار النوع وتربية الأطفال . والبحث عن الحقيقة لا سيما تلك الحقيقة التي تكون ضرورية لبلوغ غاية الإنسان ومن ثم فالإلزام يفرضه العقل، لكنه يتأسس في الحال على طبيعة الإنسان نفسه، والقانون الأخلاقي عقلي وطبيعي، بمعنى انه ليس تعسفيا أو عشوائيا، وإنما هو قانون طبيعي، يضرب بجذوره في الطبيعة البشرية ذاتها على الرغم من ان العقل هو الذي يعلنه، ولما كان القانون الطبيعي يتأسس في الطبيعة البشرية بما هي كذلك ، وهي تلك الطبيعة التي هي واحدة عند الناس جميعا، فقد نظر إليها أساسا على انها من بين الأشياء الضرورية للطبيعة البشرية فهناك، مثلا إلتزام بالمحافظة على حياة المرء، لكن ذلك لا يعني ان كل إنسان عليه المحافظة على حياته بالطريقة التي يسلكها نفسها، غير ان كل انسان ملزم بأن يأكل ، لكن لا ينتج من ذلك بأنه لا بد أن يأكل هذا الشيء أو ذاك، أو بهذا القدر أو ذاك، وبعبارة أخرى قد تكون الأفعال خيرة ومطابقة للطبيعة .[٧٣]

وهذه المطابقة يقرها العقل الطبيعي، بالنظر في الإنسان وما يليق أن يكون عليه، وفي الأشياء المحيطة به وأثرها فيه " لذلك يسمى مجموع القواعد الخلقية بالقانون الطبيعي الذي يعلم دون وحي، فان لكل موجود قانونا منطبعا في ماهيته : الموجود غير العاقل يتبع قانونا عقليا، والموجود العاقل يدرك قانونه ويملك ان يتبعه أو يخالفه، فالقانون الخلقي خاص بالعاقل، والمبدأ الأول البين بذاته لهذا القانون قائم على المعنى الأول من معاني العقل العملي، وهو معنى الخير ، وصيغته يجب اتباع الخير واجتناب الشر، فان كل موجود إنما يعمل لغاية، أي لخير، والخير مطلوب والشر مهروب منه بالضرورة ، وكل المسألة ترجع إلى تميز الخير الحقيقي من الخير المظنون، وسائر المباديء تنطوي تحت هذا المبدأ الأول ، بمعنى ان موضوعاتها هي الخيرات التي يدرك العقل انها خيرات إنسانية . وهي تتطلب معرفة الله لبلوغ تلك الغاية.[٧٤]

ودون أن تكون إلزامية وفضلا عن ذلك فعلى حين ان العقل لا يرى ان هناك إنسانا يستطيع أن يحافظ على حياته دون أن يأكل ، وليس هناك إنسان يستطيع تنظيم حياته على نحو سليم دون معرفة الله، فكذلك انه يرى ان قاعدة انتشار النوع لا تثقل على عاتق الفرد، بل على عاتق المجموعة وان ذلك يتحقق حتى على الرغم من انه ليس جميع اللافراد يحققونه بالفعل ولا بد أن تكون تلك هي إجابة القديس توما على الاعتراض القائل بأن العذرية هي ضد القانون الطبيعي، ومن واقعة ان القانون الطبيعي يتأسس على الطبيعة البشرية نفسها فذلك ينتج انه لا يمكن أن يتغير ما دامت الطبيعة البشرية تظل أساسا كما هي ، وإنها هي نفسها للكل.

---

٧٣ – ينظر : كوبلستون ، فريدريك ، تاريخ الفلسفة ، المصدر السابق، ص١٤٨.

٧٤ – كرم ، يوسف ، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط . المصدر السابق ، ص١٩٧ .

ويمكن أن يضاف بمعنى ان المباديء مفيدة للحياة البشرية فيمكن نشرها بواسطة القانون الإلهي.[٧٥] والقانون البشري، حتى على الرغم من أن هذه تتغير لو كنا نعني بالتغير الطرح أو الإسقاط من القانون، القواعد أو المباديء الأولى للقانون الطبيعي مثل لا بد من المحافظة على الحياة لا تتغير على الإطلاق، ما دام تحققها ضروريا مطلقا لخير الانسان، في حين ان النتائج التقريبية للمبادئ الأولى لا يمكن أن تتغير على الرغم من أن القديس توما يسمح بأن يكون هناك تغير في حالات جزئية قليلة ولأسباب خاصة غير ان القديس توما لا يقصد هنا ما نسميه الحالات الصعبة بل يقصد بالأحرى حالات شبيهة بحالات الإسرائيليين الذين ولوا الأدبار تاركين خيرات المصريين، وهو يقصد أن الله في هذه الحالة، وهو يعمل بوصفه السيد الأعلى والمالك لكل شيء، بدلا من أن يعمل مشرعا، نقل ملكية الخيرات التي نتحدث عنها مع المصريين إلى الإسرائيليين، لدرجة أن الإسرائيليين في الواقع لم يرتكبوا جريمة السرقة، وهكذا نجد ان مرافقة القديس توما علة إمكان تغير المباديء الثانوية للقانون الطبيعي في حالات جزئية يشير إلى ما كان يطلق عليه الأسكولائيون، حركة المادة تغير المضمون أكثر من تغير المباديء نفسها ، فظروف الفعل هي بالأحرى التي قد تغيرت حتى انه لم يعد يندرج في بند الممنوعات أكثر من تغير المنبع ذاته، وفضلا عن ذلك فبسبب ان القانون الطبيعي قد تأسس على الطبيعية البشرية ذاتها فان الناس لا يستطيعون تجاهله ،بالنظر إلى أكثر المبادئ عمومية على الرغم من انهم قد يفشلون بسبب تأثير بعض الانفعالات في تطبيق مبدأ ما على حالة جزئية معينة، أما المبادئ الثانوية فقد يجهلها الناس بسبب الأحكام المبتسرة أو الانفعالات وهذا كله بسبب أن القانون الطبيعي ينبغي أن يتطابق مع القانون الإلهي الإيجابي.

٦ – الالتزام كما سبق أن رأينا هو ارتباط الإرادة الحرة لإنجاز ذلك الفعل الذي هو ضروري لبلوغ الغاية النهائية . [٧٦]

وعلى هذا يكون علم الأخلاق هو الفن والعلم اللذين يعدان الإنسان لبلوغ هذه السعادة النهائية السرمدية ، ويمكن تعريف الطيبة الخلقية أو الفضيلة بأنها السلوك المؤدي إلى غاية الإنسان الحقة وهي أن يرى الله، والإنسان بطبعه ميال إلى الخير – المرغوب فيه : ولكن ما يراه هو خيرا ليس في كل الأحوال خيرا من الناحية الإخلاقية، وقد عصى الإنسان الله بسبب حواء في الحكم على ما هو خير، وهو يحمل الآن في كل جيل وزر هذه الخطيئة الأولى، والخطيئة عمل من أعمال الإرادة الحرة حين تخرق نظام العقل الذي هو أيضا نظام الكون، ونظام العقل هو التوفيق الصحيح بين الوسائل والغايات، وهو فيما يخص الإنسان تكييف السلوك بحيث يؤدي إلى السعادة السرمدية .[٧٧]

---

٧٥ – ان الله يجعل كل انسان على الارض ليختبر حسن استعداده ، وسلامة نيته ، ويتكفل باطلاع البشر بواسطة الوحي المنزل ، وبواسطة الوجدان يجعل كل واحد قادرا على الشعور بالمباديء التي ينبغي لها ان تسير اعمالنا، وقد وضع لذلك قانونا ، يلتصق بصفته الالهية ، هوالقانون الالهي . كريسون ، اندريه ، تيارات الفكر الفلسفي من القرون الوسطى حتى العصر الحديث . منشورات بحر المتوسط ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص٢٥ .

٧٦ – كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة . المصدر السابق ، ص١٥٠ .

٧٧ – ديوارنت ، ول ، قصة الحضارة ، المصدر السابق، ص١٣٧،١٣٩ .

وهي غاية ليست مفترضة، غاية قد تكون مرغوبة وقد لا تكون وإنما هي مطلقة بمعنى أن الإرادة لا تملك الامتناع عن تحقيقها وهي الخير الذي لا بد من تفسيره من منظور الطبيعة البشرية، لدرجة ان الأخلاق عند القديس توما تسير قريبة جدا من أخلاق أرسطو، أليس هناك ما هو أبعد ؟ فهل القانون الطبيعي الذي يصدره العقل بغير أساس متعال؟ وهل أخلاق السعادة عند أرسطو تتفق على نحو طبيعي مع نظرية الغائية العامة، لكنها ليست مؤسسة في الله، ولا يمكن أن تكون، ما دام الإله الأرسطي ليس خالقا كما انه لا يضفي النعمة الإلهية على المخلوقات، فهو غاية نهائية، لكنه ليس سببا فعالا أو السبب النموذجي الأعلى . أما في تصور القديس توما ، فسوف يكون غريبا إلى أقصى حد لو تركت الأخلاق عنده بلا رابطة مبرهن عليها مع الميتافيزيقا . [٧٨]

" والنتيجة الميتافيزيقية ان الله حاضر في كل شيء لأن الله هو الكائن بالذات، انه الكائن الذي ماهيته تتضمن وجوده، وينتج عن ذلك ان الكائن المخلوق هو فعله بالذات، مثلما ان الاحتراق هو الفعل الخاص بالنار، ولكن هذا المفعول، الله يخلقه ليس فقط عندما تصبح الأشياء مكونة بل أيضا طالما ان الهواء منار، وبما أن الكينونة (بمعنى الوجود المطلق) هي من أخص وأعمق ما في الأشياء، فانه ينتج عن ذلك ان الله موجود في كل الأشياء، وان وجوده فيها قائم بالصميم، ومنها القضايا الأخلاقية".[٧٩]

والواقع أننا نجده يصر على هذه الرابطة، على افتراض ان الله خلق العالم ويحكمه : والبرهان على ذلك لا يخص الأخلاق فانه ينتج عن ذلك انه لابد من تصور الحكمة الإلهية على انها تنظم عمل الإنسان نحو غايته فلله – إذا تحدثنا بلغة تشبيهية – لديه فكرة نموذجية للإنسان، والأفعال التي تحقق طبيعة الإنسان. والمطلوب لبلوغ غاية الإنسان والحكمة الإلهية على نحو ما توجه أفعال الإنسان لبلوغ تلك الغاية هي التي تشكل القانون الأزلي، ولما كان الله أزليا وفكرته عن الإنسان أزلية ، فان نتشار القانون لا بد أن يكون أزليا من جانب الله ، على الرغم من انه لا يكون أزليا من جانب المخلوقات، وهذا القانون الأزلي ، بما انه موجود في الله، فهو الأصل والمنبع للقانون الطبيعي، هو مشاركة في القانون الأزلي، ويعبر عن القانون الطبيعي سلبيا في الميول الطبيعية عند الإنسان على حين انه عندما ينتشر بنور العقل فانه يعكس تلك الميول، لدرجة انه بمقدار ما يملك كل إنسان على نحو طبيعي الميول إلى تلك الغاية يملك كذلك نور العقل، القانون الأزلي ينتشر على نحو كاف في كل إنسان، القانون الطبيعي هو شمول الأوامر الكلية للعقل السليم فيما يتعلق بذلك الخير من الطبيعة الذي ينبغي متابعته ، وذلك الشر من طبيعة الإنسان الذي ينبغي تحاشيه أو استطاعة عقل الإنسان على الأقل نظريا، ان يصل بنوره الخاص إلى معرفة هذه المبادئ أو القواعد، ومع ذلك فطالما ان تأثير الانفعالات والميول التي لا تتطابق مع العقل السليم قد تؤدي بالناس إلى الظلال وطالما انه ليس لدى كل الناس الوقت أو القدرة أو الصبر لأن يكتشفوا لأنفسهم القانون الطبيعي كله ، فانه يصبح من الضروري أخلاقيا أن يعبر عنه الله بطريقة إيجابية على نحو ما حدث في الوحي بالوصايا العشر لموسى، ولا بد أن نضيف ان لدى الإنسان في الواقع غاية تعلو على الطبيعة ، ولكي يكون قادرا على بلوغ تلك الغاية التي تعلو على الطبيعة كان من الضروري أن يكشف الله القانون الذي يعلو على الطبيعي ويعلو على القانون الطبيعي، ما دام الإنسان موجها نحو غاية الغبطة الأزلية التي تعلو وتفوق

---

٧٨ – ينظر : كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة ، المصدر السابق ، ص١٥١ .

٧٩ – جونو ، ادوار ، الفلسفة الوسيطة في المغرب المسيحي . المصدر السابق ، ص٧٨.

قدرات الإنسان، وملكات الطبيعة فان من الضروري ان يوجه إلى جانب القانونين الطبيعي والبشري نحو غايته بواسطة القانون الإلهي ، ومن الأهمية البالغة ان نتحقق بوضوح من أساس القانون الطبيعي الموجود في القانون الإلهي ، الأساس الميتافيزيقي للقانون الطبيعي لا يعني ان القانون الطبيعي هوائي أو عشوائي، وانه يمكن خلاف ما هو عليه : القانون الأزلي لا يعتمد أساسا على الإرادة الإلهية ، وإنما على العقل الإلهي بالنظر إلى الفكرة النموذجية للطبيعة البشرية وما دامت هناك طبيعة بشرية فان القانون الطبيعي لا يمكن أن يكون خلاف ما هو عليه .(٨٠)

" وما دامت الإرادة تابعة للعقل تميل إلى الخير الذي يعرضه عليها، فان العقل قاعدتها التي يتقد ربها صلاحها ، فإذا كان الفعل موافقا لحكم العقل كان خيرا ، وإذا كان منافيا لحكم العقل كان شريرا، وفي الفعل الإنساني يعتبر الخير والشر من ثلاثة أوجه : الأول الموضوع ان كان موافقا للعقل أو مخالفا له، كاستعمال الإنسان ماله، أو أخذه ما لغيره . الثاني، الظروف من حيث هي اعراض للفعل، مثل الكمية الملائمة أو المكان اللائق، فان خلا الفعل من شيء يقتضيه منها كان شريرا ، والثالث، الغاية التي يتوقف عليها، أي نسبته إلى علة الخير، وهذه الإجراءات تتطلب العودة إلى القانون الأخلاقي الإلهي ".(٨١)

ومن ناحية أخرى فينبغي ان لا نتخيل ان الله يخضع للقانون الأخلاقي بوصفه شيئا منفصلا عن ذاته، فالله بعرف ما هيئته الإلهية على انه يمكن محاكاتها، في كثرة من الطرق المتناهية وإحدى هذه الطرق الطبيعية البشرية، وفي هذه الطبيعة يتعرف على قانون وجوده ، وهو يريده لأنه يحب لنفسه الخير الأقصى ولأنه لا يمكن ان يكون متناقضا مع نفسه وهكذا نجد ان القانون الأخلاقي يتأسس على نحو مطلق على الماهية الإلهية نفسها ، ومن ثم لا يمكن أن يتغير : فمن المؤكد ان الله يريده لكنه لا يعتمد على أي عمل تعسفي للإرادة الإلهية ، ومن هنا يأتي قولنا ان القانون الأخلاقي لا يعتمد أساسا على الإرادة الإلهية ، فذلك لا يرادف قولنا ان هناك قانونا أخلاقيا يقف – بطريقة غامضة – خلف الله وقواعد الله، فالله نفسه هو القيمة القصوى، وهو منبع ومعيار كل القيم : والقيم تعتمد عليه لكن، بمعنى ما، هناك مشاركات أو تأملات متناهية لله، لا بمعنى ان الله يضفي عليها طابعها كقيم بطريقة تعسفية، نظرية القديس توما عن الأساس الميتافيزيقي، الأساس الإلهي، للقانون الأخلاقي لا يهدد على الإطلاق طابعه العقلي الضروري .: فالقانون الخلقي في النهاية هو ما هو عليه لأن الله هو ما هو، ما دامت الطبيعة البشرية التي يعبر عن قانونها في القانون الطبيعي تعتمد هي نفسها على الله .

٧ – وفي استطاعة المرء أن يشير في النهاية إلى أن تحقق القديس توما من وجود الله كخالق، والسيد الأسمى – قاده إلى أن يتعرف – وبصحبته بالطبع الأسكولائيين الآخرين، على القيم الطبيعية والأخلاقية التي لم يتخيلها أرسطو ولن يستطيع أن يتخيلها إذا ما أخذنا تصوره لله كقيمة فضيلة للدين – على سبيل المثال – فالدين فضيلة يقوم الناس من خلالها بالعبادة والإجلال لله الذي يعدونه المبدأ الأول للخلق وحكم الأشياء أنها الفضيلة الأعلى على جميع الفضائل الأخرى من حيث

---

٨٠ – ينظر : كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة ، المصدر السابق ، ص١٥٢.

٨١ – كرم ، يوسف ، تاريخ الفلسفة الاوروبية في العصر الوسيط . المصدر السابق ، ص١٩٦.

انها أشد اقترابا فيما يتعلق بالله [٨٢]: الغاية النهائية، وهي تابعة لفضيلة العدالة من حيث انه عبر فضيلة الدين يوفر الناس دينهم لله من العبادة والإجلال وهو دين يدينون به بعدالة وهكذا يقوم الدين على أساس علاقة الإنسان بالله، كعلاقة المخلوق بالخالق ، والتابع بالسيد ، ولما كان أرسطو لم ينظر إلى الله بوصفه خالقا يمارس تدبرا واعيا وعناية إلهية للعالم، لكنه نظر إليه على انه السبب النهائي الغائي فحسب مستغرق في ذاته تماما، ويدير العالم بطريقة عمياء غير واعية، غير قادر على مواجهة العلاقة الشخصية بين الإنسان والمحرك الذي لا يتحرك، رغم انه يتوقع بالطبع ان يتعرف الإنسان بطريقة ما على المحرك الذي لا يتحرك وان يحترمه ويجعله بوصفه أنبل الموضوعات جميعا للتأمل الميتافيزيقي غير ان القديس توما الاكويني بفكرته الواضحة عن الله كخالق ومدبر للنعمة الإلهية للعالم، يستطيع أن يتصور وقد تصور بالفعل ان واجب الإنسان الأول أن يعبر عن أفعاله عن العلاقة التي تربطه بوجوده ، ان الرجل الفاضل في نظر أرسطو، هو أكثر الناس استقلالا ، في حين ان الرجل الفاضل عند القديس توما هو أكثر الناس تبعية ، أي انه الإنسان الذي يتحقق بصدق ويعبر تعبيرا تاما عن علاقة اعتماده وتبعيته لله . [٨٣]

الخاتمة

عبر سير الدراسة في بحثنا هذا توصلت إلى مجموعة نقاط مثلت خاتمة البحث في مشكلة النظرية الأخلاقية عند توما الأكويني ، التي انبثقت من فلسفته المسيحية ، وهي:

١ – للدين علاقة وثيقة بالفلسفة تمخض عنها الموقف الفلسفي عند القديس توما الأكويني، الذي توصل فيه بأن لا دين بلا فلسفة ولا فلسفة بلا دين ، لأن كلاً منهما يبحث عن الحقيقة في إطار الحكمة.

٢ – في كثير من المواضع في فلسفة توما الأكويني نجده يعلن استقلال الفلسفة عن خدمة اللاهوت ومن دون تعرض نظامها الخاص للخطر ، فقد وجدنا في كتابه (الملخص اللاهوتي) التمييز بين الفلسفة والعقيدة المقدسة ، وهو قد وفق بين الفلسفة الأرسطية واللاهوت المسيحي ، متخذا من مشاكل فلسفية محددة منهاجا له في الدراسة مثل : الحقيقة ، والله ، والعالم ، والنفس .

٣ – جل العلاقة بين الفلسفة الأرسطية والدين المسيحي تكمن في التضاد الحاصل، فالاستحقاق لدى أرسطو يرتكز إلى فضائل هي بمثابة مكتسبات إرادية تنفيذ المعين الطبيعي المتمثل بالطبع أو الخلق، وتنامي جهود الإنسان المدنية وعلائقه بالسياسة، أما المثل الأعلى للروحانية المسيحية فتقوم على تجريد الإنسان وعزله ليتسنى للنفس أن تستقبل النعمة الآلهية.

٤ – نظر الأكويني إلى الفلسفة الاخلاقية في سياق النظام الطبيعي دون الإشارة إلى غايته التي تعلو على الطبيعة ، لذلك فعندما تحدث عن السعادة بوصفه فيلسوفا أخلاقيا تحدث عن السعادة الطبيعية ، وهي الله وعبر النظام الطبيعي .

---

٨٢ – فما كانت تعلمه المدرسه في هذا الميدان كان يحمل طابع الارسطو طاليسية الفكرية الى حد كبير وكانت هي بعيدة عن التعاليم الانجيلية وما كان ينشره الوعاظ في اوساط المجتمع اشد بروزا او اكثر تماسكا واقدر على التغلغل في افئدة الشعب ، وكان هؤلاء يمثلون الحياة لجمهور المؤمنين كساحة اختبار والعالم كقاعة واسعة للفحص الاخلاقي . انظر : كريسون ، اندريه ،تيارات الفكر الفلسفي ، المصدر السابق ، ص٢٤ .

٨٣ – ينظر: كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة ، المصدر السابق، ص١٥٤.

٥ – يرى الأكويني بأن لدى الإنسان توجهات طبيعية نحو السعادة التي لا بد أن تكمن في معرفة الحقيقة المطلقة ، ويبقى هناك ميل شديد عند الإنسان لمعرفة الله عبر رؤيته ، وهي دليل البرهنة عليه ، حينها تتحقق السعادة القصوى التي جاءت عبر النظام الطبيعي.

٦ – تكمن فكرة الشر في فلسفة توما الأكويني الأخلاقية في انعدام النظام في ترتيب الوسائل من أجل تحقيق الغايات، أي الحالة السلبية، فقد يقع الشر لانعدام مبدأ من المبادئ التي تتحكم في العقل .

٧ – يستعمل الأكويني مصطلح القواعد الخلقية، ويقصد بها النظر في الإنسان وبما ينبغي أن يكون عليه وفي الأشياء المحيطة به وكذلك أثرها فيه ، فالقانون الخلقي خاص بالعاقل، فيجب اتباع الخير واجتناب الشر فإن كل موجود إنما يعمل لغايته، أي للخير .

قائمة المصادر والمراجع

١ – ابو ريان ، محمد علي، تاريخ الفكر الفلسفي من طاليس الى افلاطون . ج١ ، دار الجامعات المصرية ، ط١ ، القاهرة ، ,١٩٧٢

٢ – أرسطو، الأخلاق ، ترجمة إسحاق بن حنين ، تحقيق عبد الرحمن بدوي ، وكالة المطبوعات ،(ب،ط) ، الكويت ، (ب،ت).

٣ – أفلاطون ، الجمهورية ، ترجمة : فؤاد زكريا ، الهيئة المصرية العامة ، (ب،ط) ، القاهرة، ,١٩٧٤

٤ – أفلاطون ، غورغياس ، ترجمة محسن حسن ظاظا ، مراجعة علي سامي النشار ، الهيأة المصرية العامة للتأليف والنشر ،(ب،ط) ، القاهرة ،,١٩٧٠

٥ – التكريتي ، ناجي ، الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام . بيروت ، دار الأندلس ، ط٢ ، ,١٩٨٢

٦ – الحفني ، عبد المنعم ، الموسوعة الفلسفية ، دار المعارف للطباعة والنشر ، (ب،ط) ، تونس ، ١٩٩٢.

٧ – الطويل ، توفيق ، فلسفة الأخلاق ، أسسها وتطورها ، دار النهضة العربية ، ط٣ ، القاهرة ، ١٩٧٦.

٨ – بدوي ، عبد الرحمن ، خريف الفكر اليوناني ، مكتبة النهضة المصرية ، ط٣ ، القاهرة ، ١٩٥٩.

٩ – بدوي ، عبد الرحمن ، فلسفة العصور الوسطى . دار القلم ، ط٣ ، بيروت ، ١١٧٩.

١٠ – بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة الفلسفة . ج١، سليمانزاده ، ط١ ، قم ، ١٤٢٧ هـ .

١١ – بدوي ، محمد ، الأخلاق بين الفلسفة والإجتماع ، دار المعارف ، ط١ ، (ب،م) ، (ب ، ت).

١٢ – توماس ، هنري ، عظماء الفلاسفة في الشرق والغرب ، سيرهم وكيف نفهمهم . تر ، زكي نجيب محمود ، دار بيبلون ، (ب،ط) ، باريس ، (ب،ت).

١٣ – جوليا ، ديديه ، قاموس الفلسفة . نقله الى العربية ، فرانسو ايوب ، وآخرون ، مكتبة أنطوان ،ط١ ، بيروت ، ١٩٩٢.

١٤ – جونو ، ادوار ، الفلسفة الوسيطة في المغرب المسيحي . تر ، علي زيعور ، المنشورات العربية ، (ب،ط) ، (ب،م)، (ب،ت).

١٥ – حرب ، علي ، هكذا أقرأ ما بعد التفكيك . دار الساقية ، ط١ ، بيروت ، ,٢٠٠٥

١٦ – حمدي ، عبد العال ، الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والبدين . دار القلم ، ط٣ ، بيروت ، ,١٩٨٥

١٧ – ديوارنت ، ول ، قصة الحضارة ، عصر الايمان . تر ، محمد بدران ، الجامعة العربية ، ط٢ ، (ب،م) ، (ب،ت).

١٨ – رسل ، برتراند ، تاريخ الفلسفة الغربية ، الكتاب الثاني ، تر ، زكي نجيب محمود ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (ب،ط) ، القاهرة ، ١٩٧٠.

١٩ – رسل ، برتراند ، حكمة الغرب ، ج١ ، تر ، فؤاد زكريا ، المجلس الوطني للثقافة والفنون ، (ب،ط) ، الكويت ، ١٩٨٣

٢٠ – روبينه، اندره، الفلسفة الفرنسية . تر، جورج يونس ، المنشورات العربية ، (ب،ط) ، باريس ، (ب،ت) .

٢١ – ستيس، ولتر ، تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة :مجاهد عبد المنعم ، دار الثقافة ، (ب،ط) ، القاهرة ، ,١٩٨٤

٢٢ – صعب، أديب ، المقدمة في فلسفة الدين . دار النهار للنشر ،ط٢ ، بيروت ، ١٩٩٥ .

٢٣ – طرابيشي ، جورج ، معجم الفلاسفة . دار الطليعة ، ط٣ ، بيروت ،٢٠٠٦

٢٤ – غالي ، ميلاد ذكي ، الله في فلسفة القديس توما الاكويني . دار المعارف ، (ب،ط) ، الاسكندرية ، (ب، ت).

٢٥ – كامل ، فؤاد ، واخرون .الموسوعة الفلسفية المختصرة . دار القلم ،(ب،ط) ، بيروت ، (ب،ت).

٢٦ – كامل ، ماهر ، عبد الرحمن ، عبد المجيد ، مبادئ الاخلاق ، مكتبة الإنجلو المصرية ، ط١ ، القاهرة ، ,١٩٥٨

٢٧ – كرم ، يوسف ، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط .دار الكتاب المصري ، (ب،ط) ، القاهرة ، ١٩٤٦.

٢٨ – كريسون ، اندريه ، تيارات الفكر الفلسفي من القرون الوسطى حتى العصر الحديث . منشورات بحر المتوسط ، ط٢ ، بيروت ، ,١٩٨٢

٢٩ – كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة، المصدر نفسه ، ص١٣٨، وللمزيد أنظر : الشرقاوي ، محمد عبد الله ، الفكر الأخلاقي ، دار الجيل ، ط١ ، ,١٩٩١

٣٠ – كوبلستون، فريدريك ، تاريخ الفلسفة . تر، حبيب الشاروني ، محمود سيد احمد ، تقديم ، امام عبد الفتاح امام ، المركز القومي للترجمة ، ط١، القاهرة.

٣١ – موسى ، محمد يوسف ، تاريخ الأخلاق .القاهرة، دار الكتاب العربي ، (ب،م) ، ,١٩٥٣

٣٢ – هارالد، موللر . تعايش الثقافات . ترجمة :ابراهيم ابو هشهش، دار الكتاب الجديد المتحدة ، طرابلس ، ,٢٠٠٤

٣٣ – ببرهييه، اميل ، تاريخ الفلسفة . العصر الوسيط والنهضة . تر، جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ط١، بيروت ، ١٩٨٣.

المصادر الأجنبية

1 – Wstson . hedonlstic Theories from Aristippus to spencer.A.E. yalor.Epicurus